

منشورات الاختلاف

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



ياسمينه صالح

ياسمينه صالح

وطن من زجاج

وطن من زجاج

رواية

منشورات الاختلاف

الدار العربية للعلوم - ناشرون

وطن من زجاج

رواية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ياسمينة صالح

وطن من زجاج

رواية



منشورات الاختلاف

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة
تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي
والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى
بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى
1427هـ - 2006م

ردمك 9953-29-242-6

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف

14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة - الجزائر

e-mail: revueikhtilef@hotmail.com



الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)

ص.ب: 5574 - 13 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنفيذ وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم - ناشرون، بيروت - هاتف 786233 (9611)

الهـدوء ..

حين نستيقظ صباحاً ولا نجد وطناً ننكى عليه نكتشف
حدة اليتيم والفراغ المهول الذي نجّره يومياً في عمرنا
الجاهز للانكسار. و اليتيم .. و اللا أمل ..

إلى كل الذين يعتقدون أن حزنهم أرفع من خيبتهم
الكثيرة. أرفع من سوء الطالع الذي يتربص بهم في مسيرة
البحث عن وطن لا يسكنه القتل .. ولا الطواغيت!

إلى الذين رحلوا تاركين ذاكرتهم معنا.

إلى جيلي ، والجيل الذي تلاه ، والجيل الذي سيولد
عما قليل أكثر يتماً وفجيرة!

إلى الوطن الذي نحبه برغم كل شيء .. و نعيش فيه
برغم كل شيء!

ياسمينة صالح

yasmina_salah@yahoo.fr

كيف نحب وطناً يكرهنا؟ سأله وصمت. ثم غارده... لم يغادره بمحض إرادته، إنما غادره غضباً. غادره موتاً. كان الموت رهيباً وهو يأتي محملاً بالكلمات الجاهزة. قال عنه زميله: لقد مات في اشتباكات حين كان يطارد جماعة مسلحة...! كما لو كان يريد أن يثبت لنفسه شيئاً ما، فقد كان يومها سعيداً.. أجل.. لسبب غامض، كان سعيداً كمن اكتشف هباء الكون، ولا جدوى التفاصيل التي يتقاتل الناس عليها، باسمها أو لأجلها... ودّع الجميع. ودّع أمه وخطيبته، ولبس بذلته الرسمية الزرقاء وخرج. كانوا يعلمون بحاستهم الـ"سابعة" أنه لن يعود. فقد كانت "خرجته" تلك مثيرة وملينة بالإيماءات والأسئلة المدفونة أبداً في قلب لن يتحرر من عقدة المدينة والمكان / الهباء.

- أجل يا صديقي. مات الرشيد. دفناه أمس مع زميلين له. مات مبتسماً، كمن يتحرر أخيراً من كذبة الوطن والناس...!

لشد ما تمنيت وقتها لو أستطيع البكاء. تمنيت لو أستطيع أن أمد ذراعي إلى محدثي لأوقفه عن الكلام أو لأبكي قبالة.. لأبكي أمامه بلا خجل من "عيب" البكاء... لكنني عجزت عن الحركة. حين تساءلت بيني وبين نفسي فجأة: كيف يمكن تفسير هذه العبثية المطلقة.. كيف يمكن تفسير هذا الهباء؟ لم يكن الرشيد صديقي. كان صديق المكان.. وجهاً تعودت عليه مبتسماً حتى في حالات الشتات والخوف اليومي والجري خلف تلك الظلال الممتدة من وإلى الفراغ والهاوية.. تلك الظلال الرهيبة التي يسميها الناس: إرهابيون... أو متطرفون، أو مسلحون أو متمردون أو معارضون.. هل تهم المسميات في عمق العتمة؟ لا أحد كان يعرفهم.. لا أحد.. هم الحاضرون في سوداوية ظلالهم حين

يحاصرون المكان.. حين يطلقون النار على الضحية المنتقاة ثم يركضون.. فيركض - الرشيد - خلفهم عن لاوعي أحيانا! أجل! عن لاوعي، وعن واجب لا يعرف كيف يجادله أو يعصاه! كنت ألتقيه في مقهى المكان.. يقترب نحوي مبتسماً، ويمد يده مصافحاً بحرارة تجعلك تشعر بالحب نحوه. بحب غريب.. حب لا يجبرك على مقاسمته ذاكرتك. حب لا علاقة له لا بالأسئلة ولا بالواجب ولا بالبذلة الزرقاء ولا بالبذلة المدنية. حب بسيط وصادق ومدني. يجلس قبالي وفي خضم الكلام يقول لي الجملة ذاتها: "إن احتجت إلى شيء أو خدمة فاتصل بي!"

ولم أكن أدري نوع الشيء أو نوع الخدمة التي يحتاجها رجل مثلي من رجل مثله؟ لكنه الوطن الذي يتعامل معك بلغة الـ "خدمات" .. الوطن الذي يجردك من صلاحيتك في سؤال تعي جيداً أنك لا تملك رداً عليه حين لا تجد من يخدمك حقاً، حين تتعطل حياتك بسبب مشكل إداري تافه وحين تتوقف أحلامك كلها بسبب مشكل سياسي تديره نخبة من "الرجال المحترمين" الذين لا يخدمك أحد منهم إلا ليقدم نفسه مليون مرة..! كان الرشيد يدرك ذلك تمام الإدراك.. الكل يدرك ذلك. لكن النهاية قاتمة والحكاية تبدأ من المقبرة دائماً!

كان "صديقنا المشترك" ينظر إلي بصمت وحزن، وكنت أنظر إلى نقطة بعيدة، لا يراها غيري. لم أقل شيئاً. لم أبك، ولم أهز رأسي. كنت صامتاً كجدارية فقدت ألوانها فجأة. ولأنني رغبت في البكاء فقد تركني صديقي وغادر دون أن يصافحني. كان ذاهباً ليكي هو أيضاً!

نبكي من؟ نبكي ماذا؟ وكيف نبكي ذلك البكاء الذي لا يجعل

القتلة يتسمون خلصة محرّكين رؤوسهم استهزاء؟ حين يبكي الرجال تضحك المدينة كمومس لا تكثرث لشيء سوى لصورتها في المرأة العاكسة للكارثة! ربما لهذا السبب تحديداً شعرت بالحزن لأن الرشيد مات. قتل. أو اغتيل.. ما الفرق.. لا فرق بين ميتة وأخرى إلا في ماهية شعورك إزاء الميت نفسه. لم يكن الرشيد استثنائياً.. لكنه كان عادياً وبسيطاً، ومنصاعاً إلى الواجب بشكل عجيب.. واجب الوطن.. وواجب الوفاء للوطن من دون أن يقف يوماً ليسأل: لماذا لا يكون للوطن واجبه نحوي أيضاً! كنت أحياناً أضغط على أسناني كي لا أنفجر بالضحك حين يتكلم عن "الأمن الوطني" .. عن "السيادة الوطنية"، عن "دولة القانون" و"العدالة" و"الحرية"! تلك الكلمات الكبيرة والجاهزة في حوار لا ينتهي إلى شيء... تلك الكلمات التي تضحك بها المدينة علينا، لتقهرنا وتضطهدنا وتلغي باسمها حقوقنا كلها. الأمن والسيادة الوطنية ودولة القانون والعدالة والحرية. بهذا التسلسل العجيب.. بهذا الإصرار على ذكرها كلما تعلق الأمر بحوار تتراكم فيه أبهة الهباء الجاهز.. أبهة الهباء الراهن والتاريخي.. "الأمن والسيادة الوطنية ودولة القانون والعدالة والحرية" تقال دائماً بصيغة الغائب وبعبارة "كنا بخير" أو "كنا لا بأس بنا!" كما يقولها "كبار السن" عندنا حين يتأففون من الواقع ومن هذا الجيل الذي لا يجيد الصبر.. "كنا بخير"! يقولها الجزائري في حواراته اليومية، عن عفوية مدهشة ومخيفة معاً.. "كنا بخير" .. فأسال نفسي: متى كنا بخير حقاً؟ من يتذكر الخير الذي كنا فيه أو عليه؟ لا أحد، ولا حتى أولئك الذين يسوقون "الخير" في جمل يربطونها بالأمس.. كما لو أن الأمس أفضل من هذا الجحيم الذي نحن فيه. الذين عاشوا الأمس مارسوا

حياتهم على هامش الكلام... على هامش الأحلام التي لم يكن لهم حق الحلم بها. حتى الموت لا يحق لهم أن يموتوا دون أن يكتب الحارس العام "لبلدية" تقريراً عن الميت وتاريخه و"خطايا" السياسية بالخصوص: هل كان ينتمي إلى حزب أم إلى الدولة.. هل كان يمجّد الزعيم أو كان يكفر به؟ هل كان سعيداً بفقره وكوارثه اليومية أم تعيساً ومعارضاً حد العصيان!! ففي الجزائر، من لا يقدر على الأداء يتكلم.. يتكلم في كل مكان.. في المقاهي والشوارع والأحياء المكتظة بهموم الناس. هناك فقط ينتصر الكلام على حواجز التفتيش.. على المخبرين وعلى حراس الليل.. فقط الكلام الذي يأخذ - دائماً - طابع الحوار العفوي عن السياسة والحكومة والأزمة الأمنية والحالة الاجتماعية والبطالة واللاعْدالة واللامن والخوف والفراغ والانكسار الكبير.. الكبير.. الكبير ليكتشف الناس أن كل هذه الانكسارات والإحباطات ليست وليدة اليوم، وأن ما يعتبرونه "أمساً جميلاً" كان ساحة مفتوحة لهذا الخراب الحالي وأن الأمل هو الذي عبّد الطريق إلى كارثة اليوم بكل ألقابها. فمتى كنا بخير إذن؟ كنت أقولها أحياناً حين أجدني "أقتل الوقت" في مقهى المكان، قبالة ذلك الرجل الذي كان يربكني أحياناً بعينه الثابتين وصمته المدهش.. ذلك الرجل الذي نسّميه كلنا "عمي العربي" لأن لا أحد يعرف اسمه الحقيقي.. والكل يعني أن اسم "العربي" كان اسمه الحركي في نهاية الخمسينات، أيام كان ثائراً من ثوار الوطن القدامى! "عمي العربي" الذي أجلس قبالة وأتظاهر بالصمت مثله ليتحرش بصمتي.. كي يجبرني على قول أشياء كان بعضها يضايقه والبعض الآخر يصدمه. مع أنه هو نفسه كان مليئاً بالأسئلة. هو الذي يرتاد

المقهى كل مساء ليحكى عن تاريخه الشخصي لجيل لا يفقه في التاريخ. كان يحكى عن السيادة التي لأجلها مات الملايين من الشهداء.. سيادة لا يستوعب الناس اليوم ماهيتها ولا أهميتها.. لم يكن يصغي إليه أحد.. فلا أحد يصغي إلى التاريخ المرتبط في الذاكرة بالخسائر الاجتماعية التي وقعت بعد الاستقلال، وبـ"أصول" النهب التي جرّت الناس إلى المجاعة والشحاذة! كأن الشهداء خرافة.. كأن الثورة كذبة تاريخية لأجل حاضر بائس.. لهذا السبب لم يكن أحد يصغي إلى "عمي العربي". وحدي كنت أصغي إليه أحياناً، وكان يجد في ذلك شهامة مني. أنا الذي لا تهمة التواريخ المعطلة، ولا الذكريات التي تجر العربة نحو ماض لم يعشه أحد حقاً. ماض ممزوج بالمبالغة والتحريف أحياناً.

"عمي العربي" .. بعينه الثاقبتين، ووجهه المتعب وملامحه الكثيبة، وطريقته الاستنزافية في التدخين، بسعاليه المتقطع بين سيجارة وأخرى ينصحني ألا أكون مثلهم، أولئك الكافرين بالوطن! يقول لي بصوت يريده مقنعاً: "الوطن حقيقة يجب الإيمان بها يا بني. الوطن ليس رئيس الجمهورية وليس الحكومة وليس الغيلان السياسيين، ولا الجلادين ولا السجّانين ولا المنفيين ولا المفقودين، ولا الخونة ولا الإرهابيين.. الوطن هو ما نتنفسه وما نستشعره.. هو الأعشاب التي نمشي عليها والعصافير التي توقظنا في الصباح، والمطر الذي يباغتنا عن غير موعد، والتحايا البسيطة التي لا نستوعب قيمتها إلا متأخرين!"

أليس غريباً أن ينطق رجل واحد بهذا كله، هو الذي فقد رجله إبان الثورة ثم بعد الاستقلال وجد نفسه على الهامش، كملايين من "المجاهدين" الذين اكتشفوا أن الوطن الذي حاربوا لأجله لم يعد

يستوعبهم.. لم يعد يتسع لإخلاصهم ولصدقهم، وأن الشهداء الذين استشهدوا لأجله مجرد توارخ يتذكرها "الكبار" احتفالاً وفولكلوراً و"زردة" يأكلون من خلالها أموال اليتامى والمساكين. "عمي العربي" واحد من الذين همشهم الوطن. أخذ منه رجله وتركه عاجزاً عن المشي والحلم أيضاً. كانت التعويضات عبارة عن حوالة مالية تأتيه كل شهرين وحوافز سرعان ما هرع إليها أولئك الذين "اكتشفوا نضالهم" في آخر لحظة.. في آخر يوم من أيام الثورة! حتى الذين خانوا الوطن تحولوا إلى "مناضلين" مميزين واستثنائيين، لأن الذاكرة لا تحفظ كل الأسماء ولا الوجوه، ولأن الوطن يشجع العفو عن الخونة ويجيد قتل الأبرياء! "فعفا الله عما سلف!"

- لا تصدّق الخونة يا بني.. صدّق أولئك الذين أحبوا الوطن، هؤلاء الذين ماتوا قليلاً أو كثيراً.. صدّقهم حين يدافعون عنه دونما حاجة إلى تبرير شيء لأحد، ودون المطالبة بالمقابل من أحد! كنت أرفع عيني إليه، متمنياً لو كنت قادراً على التعليق بشيء ولو بوقاحة شاب من جيلي! ثم فجأة، يبدأ في سرد حكايته التي أعرفها عن ظهر قلب!

يا عمي العربي.. من كنت حقاً؟!!!

* * *

"عمي العربي" الذي يحكي عن نفسه في حكاية يرويها لي كما يرويها لكل الناس كمن يحكي عن قصة حب قديمة وحميمة.. يحكيها بتفاصيلها المدهشة.. فأجذني أقرأ الحكاية في عينيه حتى حين يصمت، وحين يبدأ في نفث دخان سيجارته الحزينة!

الحكاية التي بدأت معه في الرابع من شهر أكتوبر الجزائري من عام 1944 أيام أشعلت المظاهرات يومها شيئاً في قلب والده الذي لم يكن يملك إلا دكانة صغيرة ليمارس مهنته التي تعلّمها عن أبيه وعن جده: "الإسكافية" ... تصلّح أحذية الفقراء التي لم يكن فيها ما يصلّح أصلاً، فيبتكر لها جلدًا يطيل لها عمرها سنة أخرى. كان "العربي" وقتها في الخامسة من العمر ولهذا لا يذكر سوى ملامح والده الجادة، وصوت المطرقة التي كانت تنهال على المسامير الصغيرة.. على الأحذية القديمة الممزقة. فيسأل والده: "ما فائدة إصلاحها وهي بهذا الشكل من الرثاية؟" كان أبوه يبتسم له بجدية لا تخلو من عتاب. ويقول: الرثاية لا تعكس إلا المظهر يا بني، هذه الأحذية لأولئك الذين سرقت فرنسا راحة بالهم مثلما سرقت خيراتهم. هذه الأحذية تعكس واقع البلاد، وتصلّحها أفضل من رميها. لا يمكن للنساء أن يمشين حافيات. الوطن لهن، ومن له وطن لا يمشي حافياً!

"العربي الصغير" الذي يجالس والده في الدكان ويسمع الكلمات التي لا يفهمها عقله، ومع ذلك يشعر أنها كبيرة ومهمة لأن والده من يرددها، وما يردده والده يجب أن يكون عظيماً! ألم يصبح والده بطلاً؟ لم تكن البطولة اختياراً في النهاية، تماماً كما

الأشياء المبالغية التي لا تنتظر أن يختارها حاملها، كانت تبدو الأقدار مهياة ذلك اليوم من شهر أكتوبر عام 1944.. التاريخ الذي اقتحم فيه الجنود الفرنسيون منزلهم.. كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها "العربي الصغير" جنوداً فرنسيين وجها لوجه. كان يدرك أن دخولهم إلى البيت لن يكون عادياً، وأن البداية ستبدأ من ذلك التاريخ بالنسبة لعائلته وبالنسبة لوالده وبالنسبة إليه. فجأة علقت في مخيلته الصغيرة صورة الجندي وهو يصرخ بهستيريا وبلغة لم يكن يفقهها.. كان الجنود يبحثون عن شيء لا يعرفه، يوجهون الأسئلة لوالده بنفس العصبية والصراخ ثم ينهالون عليه ضرباً.. ثم.. بسرعة بدت مخيفة، اقتادوا والده خارج البيت.. جرّوه إلى عربة عسكرية انطلقت بسرعة قبل أن تختفي عن الأنظار.. لم يكن في المشهد أكثر من ذلك الوجه الفرنسي والصوت الذي يلحن في كل الجزائريين البائسين..! اختفى والده. لم يره من وقتها. يومها تساءل "العربي" عن هذا الوطن الذي يستسلم لهكذا محتلين، ويطأطي رأسه لمرور دباباتهم العسكرية أمام بابه. الوطن الذي يبصق عليه الجندي الفرنسي حين يتكلم عن الجزائريين البائسين الذين يصفهم بالأوباش..

لم يكن يدرك أين أخذوا أباه. لكن أمه أدركت، لهذا غرقت في الفجيعه والصمت والفراغ.. كانت أمه تعرف جيداً أين اقتادوه بعد أن اتهموه بمساندة من أسمتهم فرنسا "بالإرهابيين" الجزائريين. كانت تعرف أن الذين يذهبون إلى هناك لا يعودون.. فلا أحد يعود من هناك. من تلك الأمكنة التي تسكنها الجنية الخرافية التي تأكل لحم الكبار والصغار على حد سواء. تلك التي لا تشبع.. تظل تأكل وتأكل وتأكل وتأكّل... ألم يكن الاحتلال وجهاً من أوجه الجنية؟

يومها أحس "العربي" أنه يحنق على الفرنسيين.. يكرههم لأنهم حرموه من أبيه، ولأنهم حرموه من أمه التي ماتت سنة من بعد تلك الحادثة.. ماتت حاملة حسرتها معها والأسئلة التي لم تجد لها جواباً. ثم في السنة الثالثة من الاعتقال اكتشف أن والده أعدم شنقاً بتهمة التآمر على "أمن فرنسا في الجزائر"! لم يكن ليستوعب ماهية الشهادة وقتها.. كان يتيماً، ولم يكن ثمة حسرة أشد وطأة من تلك التي تمازج بين اليتيم والضعيفة.. ضعيفة تربي على يدها، كبر معها وتجاوز حدودها بسرعة مذهشة.. في العشرين من العمر، وجد نفسه يتحول من مجرد شاب إلى مقاوم. هل كان عليه أن يعيش سنواته العشرين كما يعيشها الشاب الفرنسي مثلاً؟ مستمتعاً بالحياة، يحب ويعشق ويتزوج وينجب أطفالاً يجرهم في عربتهم الصغيرة بجانب زوجة جميلة وسعيدة؟ لم يكن له تلك الأحلام، لم يكن له الحق فيها. ولهذا صار جزائرياً، لثلاث تآكله الجنية ثانية! كان الاختيار سهلاً وبسيطاً وحتمياً. لم يكن بمقدوره أن يعيش بلا ذاكرة ولا أحزان. لم يكن بمقدوره أن يتزوج وينجب أطفالاً يورثهم الفقر والجهل والأحذية الرثة.. كان يعرف أنه خلق ليكون في الصف الآخر وليس في الصف الأخير.. في الجهة التي لا يمكنها أن تلتقي بالجنباء، مهما كانت صفتهم ومهما كنت وضعيتهم.. وفي الواحد والعشرين من العمر وجد نفسه مسؤولاً في خلية سرية تابعة لجهة التحرير الوطني. كانت مهمته اختيار مجموعة من الشباب الغاضبين مثله للقيام بمهمة دقيقة وخطيرة.. مهمة تطهير الوطن من العملاء والخونة! ألم تكن الضعيفة من صنعت شخصيته القوية حد الشراسة. الضعيفة نفسها جعلت انتقامه من العملاء جزءاً من واجبه نحو الوطن الذي آمن به. فالتحاقه بصفوف الجبهة كان واجباً أيضاً. واجب شعر

أنه ينتقم من خلاله لكرامته ولكرامة والده وأمه وإخوانه الذين تشبوا هنا وهناك. كانت الأوامر التي ترده من قيادي الجبهة واضحة وضرورية: القضاء على العملاء الخونة أينما كانوا! فكان يتربص بهم وقد شغل مجموعة من المساعدين لا يملّون ولا يكلّون من التربص والتحري. ليأتي يوم القصاص، وليجد متعته في قول تلك الجملة التي عاش لقولها: حكمت عليك الجبهة بالموت يا كلب! ثم يطلق الرصاص من مسدسه ويمضي نحو خائن آخر!

وقتها، كانت المسألة كبيرة وقدرية.. فالقضاء على الخونة يعني القضاء على العدو تلقائياً، وهي مسألة أرعبت العملاء وأجبرتهم على الانطواء وعلى الهرب من المراقبة. مراقبة الجبهة لهم ومراقبة الناس الذين كانوا يلتحقون بالجبهة آلياً عن قناعة أو عن تعاطف، أو عن مجرد إحساس بالحاجة إلى وطن صنعت منه جبهة التحرير الوطني وجهة لنضال لا يمكن رفضه أو إدارة الظاهر له. ولكن.. حين اقتصرت مهمته على إقصاء الخونة، اكتشف أن الخونة هم أيضاً أولئك الذين يعتبرون المعركة خارج اهتماماتهم. أولئك الذين يحيدون عن الواقع ويختارون حياتهم بدل اختيار حياة الوطن.. كان يشعر أنه سيظل يطارد الخونة دائماً، وأن الخونة يزداد عددهم أيضاً قبالة رجال يناضلون في معارك أخرى، ويموتون بالآلاف في المدن الأخرى. رجال - مثله - اختاروا الثورة تاركين خلفهم خطيبة أو زوجة أو أم أو حلم.. كانوا مثله تماماً، ينظرون إلى الوطن كواجب لا يمكن التخلي عنه. ماذا كان الفرق بين الحيايين والخونة؟ ربما لا فرق في النهاية. الخيانة تعني في الأخير "الحيايد" في وطن يقتله المحتلون، وهو كان مناضلاً حقيقياً تعتمد عليه الجبهة في عمل لا يمكن لغيره القيام به بالتفاني والحزم معاً، وبصوت لا يعكس إلا

تلك الرغبة في قول شيء مسموع وحتمي: "حكمت عليك الجبهة بالموت يا كلب!" لم يكن الموت شكلاً من أشكال العقاب فقط، بل كان وسيلة لوشم الميت بالعار إلى الأبد، كما الثورة وسيلة لوشم المناضل إلى الأبد. ثم، ذات مرة، جاءت المهمة الجديدة بقتل عميل تسبب في اغتيال واعتقال العديد من المناضلين. كانت المهمة ككل المهمات السابقة تستدعي المراقبة والتحصيل ثم التنفيذ.. في ظرف أسبوع واحد استطاع جمع أكبر قدر من المعلومات عن تحركات "العميل" والأماكن التي يرتادها. رسم خطة لاصطياده ليلاً. تربص به حتى نجح في الوصول إليه.. لكنه لم يقتله كما تمنى أن يقتله! لأول مرة يسمح لمحكوم عليه بالإعدام أن يتكلم، أن يجادل وي طرح الأسئلة! حين وقف قبالة وجه مسدسه نحوه سأله هذا الأخير قائلاً: لماذا؟ كان يكفيه الرد مباشرة قائلاً له كما تعود أن يقول عادة: لأنك عميل.. خائن.. لأنك بعت إخوانك لفرنسا..! ولكن، بدل أن يقول ذلك وجد نفسه يبحث عن إجابة غير تقليدية. إجابة يمكن عبرها قول فكرته كاملة.. بعد صمت قصير رد عليه قائلاً: لأنك بعت نفسك لفرنسا ولا مكان لك بيننا..! كانت تلك الجملة ناقصة، ومع ذلك كان عليه الاكتفاء بها والتنفيذ.. رد عليه العميل بلهجة لا تخلو من تحدي ومن استهزاء حد الإهانة: أنا أمارس دوراً كما تمارسه أنت، أنا أعمل في اتجاه أرى أنه سيدوم طويلاً. فرنسا لن تخرج من الجزائر لا اليوم ولا غداً، إنها باقية، وسترى أنك حتى لو قتلتنني فستكتشف أن عدد الذين يقفون في جهتي كثيرون، وأنت لن تحصل في النهاية إلا على لقب آني مفبرك يضحكون به عليك لياكلوا كل شيء دونك! لأن الذين أرسلك يأكلون من بقاء فرنسا أيضاً! فلن يكون ثمة فرق بيني

وبين أولئك الذين سيخونونك ذات يوم باسم الواجب!"

تلك الكلمات التي جاءت كطعنة موجعة، ضغط بغضب على الزناد وأفرغ رصاص مسدسه في صدر العميل. بصق عليه ومضى. لكنه أحس أن كرامته جرحت!.. هل ما قاله العميل كان ردة فعل ناجمة عن شعور بالخوف أم أنه لم يخف أساساً حتى وهو يعرف أنه محكوم عليه بالموت لا محالة؟ أه لو أنه قتله كما يفعل كل مرة، بصمت وسرعة وحزم. ما الذي جعله يتردد ليصغي إلى ما بدا له مهيناً وجارحاً. كأنه كان يتوعده بنفس المصير. يومها شعر بالغضب من نفسه وعليها.. هو الذي حين لا يقتل خائناً، يجلس منزوياً وساكناً. يتجول في المدينة متفادياً الأماكن المكتظة بالجنود. كان يختار الأماكن الشعبية التي يضمن ذوبانه فيها.

هناك.. يصغي إلى الناس ويراقب حزنهم اليومي ومعاناتهم الكبيرة ومأساة كل يوم. هناك لا مكان لصورة أخرى غير صورة الوطن الذي يمتد واسعاً حد الفجيعة. هناك، كل أرملة تشبه أمه، وكل معتقل يشبه أباه، وكل بيت يترك كرسيّاً فارغاً حول مائدة العشاء هو بيته.. ألم تترك أمه كرسيّاً فارغاً وسط البيت بعد أن اختفى والده؟ ظلت مصرة على ذلك، مقتنعة بينها وبين نفسها أنها تفعل شيئاً من واجب الوفاء لرجل انتظرته برغم كل شيء، ثم بعد رحيل أمه لم يعد ثمة داع لترك كرسي آخر فارغاً، فقد تشتت الإخوة، كل في بيت خال أو عم، ما عداه هو، اختار التحرر من الآخرين ليكون ما أراد أن يكون... ليحمي ذاكرة أراد أن يخلص لها عن حب أو عن واجب.. ربما إخلاصاً لذاكرة والده أو ذاكرة طفولته أو كلاهما معا.. كان يسترجع تلك التفاصيل حين لا يكون له وقت للتفكير في غيرها. ولهذا يحب الذهاب إلى حزن الناس

وتواضعهم وقت الوجع لينسى وجعه الخاص قبالة التفاصيل والسنين التي تسربت من العمر كاختلاس في الوقت. السنين التي مرت هكذا. على أكتاف كل الذين كانوا يموتون لأجل الواجب. كانوا يعرفون مسبقاً أنهم لن يموتوا في حادث عابر، ولا بمرض مزمن، ولا في أسرّتهم الدافئة، بل يموتون في تقاطع الحقيقة والخيال، وفي تسرّب اللحظة/ القدر إلى مساماتهم. يموتون لأنهم اختاروا ما لم يختره الحياديون الذين يبقون دوماً على قيد الحياة.. كان "العربي" أشد قناعة و يقيناً وأكثر حرصاً على الواجب.. كان مهيباً ليكون مخلصاً في قناعاته إزاء ما كان يسميه وطناً ولم يكن في الحقيقة إلا واجباً أيضاً. الذين كان يصفيهم خانوا تلك القناعات، اختاروا اللا واجب. لهذا حتى وإن ماتوا فلن يكون موتهم إلا اختزالاً طبيعياً لماهية الحياة والموت لأن الملايين الذين استشهدوا تحولوا فجأة إلى ذاكرة مشتركة يتقاسمها كل الناس بينما حق للبقية فعل ما شاءوا عن "اجتهاد"! أليس هذا ما حدث في أواخر الحرب؟ حين كان مكلفاً بالمهمة الأخيرة. بقتل أحد الذين تصفهم الجبهة بأخطر "عميل" في البلاد. كانت تلك المهمة أهم من كل المهمات التي نفّذها. ولأنها حاسمة فلم يكن له حق الخطأ فيها. كان مصمماً ألا يترك لخصمه فرصة الكلام، ولا حتى فرصة التفكير.. كان عازماً على تصفيته بلا شفقة ولا رحمة ولا نظرة نحو الخلف.. لأن الواجب يحتم عليه ألا يخطأ!! كل شيء بدا جاهزاً.. التحريات والترصد والترقب قادوه إليه في زقاق شارع كان يعبره "العميل" مطمئناً كمن يمارس الحياة بضمير نقي. كمن لا ذنب على عاتقه.. انتظره أسفل الزقاق.. وبعد انتظار بدا له طويلاً ظهر "العميل" ممسكاً مسدساً في يده.. حين لمح العربي ارتبك لكنه لم

يهرب... ظل يحدق فيه قبل أن يقول له أخيراً:

- أنت هو "العربي" أليس كذلك؟

وكان "العربي" من ارتبك في تلك اللحظة.. توقع سؤالاً آخر غير هذا. وحين لم يرد قال العميل:

- أنت هو إذن. "العربي" الذي وُكِّلته "الجبهة" ليقتل جزائرياً مثله!

غضب "العربي"، وردّ بانفعال:

- أنت لست جزائرياً يا كلب. أنت خائن وقّاد!

أجاب هذا الأخير:

- هل لديك دليل على خيانتني؟ هل تعرفني؟

ارتبك أكثر.. دليل خيانتته؟! هذا الذي كان ناقصاً! ولعله استغرق دقيقة كاملة في التفكير في ذلك الدليل.. ثم حين همّ بإطلاق النار سبقه العميل بوابل من الرصاص أصابه في بطنه ورجله.. سقط على الأرض.. لكنه في لحظة بذل فيها جهداً رهيباً، استطاع أن يطلق النار ويصيب العميل في ساقه.. رآه يسقط ثم ينهض.. يترنح ويهرب!

من عادة "العربي" حين القيام بمهمة حساسة أن يستعين باثنين من مساعديه المخلصين. من عادته أن يكون حريصاً "عن واجب" لأداء المهمة.. من عادته ألا يرتبك.. لكنه ناقض العادة ليجد نفسه قد أخطأ للمرة الثانية! لأول مرة منذ بدأ يؤدي "واجب" القضاء على العملاء يفلت منه أحدهم. بيد أن الذي أفلت منه كان خطيراً. كان واحداً من الذين باعوا الوطن والواجب والشعب. ليس هذا فقط، بل استطاع ذلك "العميل" أن يطلق عليه الرصاص. كما ينقلب السحر على الساحر.. كما تصير اللعبة مزدوجة الأوجه..

كأنه هو العميل هذه المرة. كأن الذي باغته بإطلاق النار عليه كان ينتظره هو ليتقم لكل الخونة الذين صفّاهم من قبل! ظل منهاراً ينز دماً ممسكاً بمسدس لم يعد يصلح لشيء.. ثم غاب عن الوعي. غاب طويلاً ليجد نفسه قد تغير. كمن يدخل إلى قالب جاهز لتغيير الوقت، بين زمنين، واحد انتهى والآخر يبدأ للتو أكثر غموضاً وإرباكاً. كان يخيّل إليه أنه سقط في هاوية سحيقة داخل كابوس يريد الاستيقاظ منه. كان داخل دارة من العتمة، والأصوات التي اختلطت عليه.. صوت والده وأمه والناس الذين عرفهم صدفة أو عرفهم عمدا والعملاء الذين صفّاهم.. أولئك الذين سمح لهم بالكلام أو لم يسمح.. الصور والوجوه والأمكنة والمشاهد كلها اختلطت في هالة من الموت العجيب.. ثم حين فتح عينيه وجد نفسه في بيت لا يعرفه. قيل إن أحدهم قرر أن يخوض مغامرة إنقاذه بعد أن عثر عليه ملقياً على قارعة الطريق، مصاباً وممسكاً بمسدس في يده! قيل له إن وجود مسدس معه دليل كاف بأنه واحد من "الخاوة"! كانت تلك صورة غير مباشرة لـ "شرف" الجريح.. فمن ذا الذي يسقط في وسط الزقاق جريحاً إن لم يكن واحداً من "الخاوة"? ولأنه كذلك فكان يجب أن يعالجه طبيب من الـ "خاوة".. حتى والطبيب يعترف لمرضه أنه يشعر بالحذر لأنه لا يعرف فعلاً من يكون هذا الجريح الذي تقرر بتر ساقه لإنقاذه من الموت..

من يكون؟ خائن أم مجاهد؟.. هنا فقط تختلط الأمور والمفاهيم بين مجاهد وخائن أو عميل، حين يبدو الشك لحظة خوف.. حين لا يمكن في النهاية التمييز بين هذا وذاك. كيف يمكن القول أن هذا وطني وذاك غير وطني أمام الموت. أمام إصابة الموت؟ لم يكن "العربي" يحمل أوراقاً ثبوتية.. كان أعزل الهوية.

فاقد الوعي قاب قوسين أو أدنى من الموت. لكن الطبيب تعاطف معه، ففي ظروف كهذه الظروف يتعاطف الرجال مع بعضهم عن لا وعي أحياناً وعن إحساس غريزي بالمواطنة وبالواجب!

عندما استعاد "العربي" وعيه وأفاق على ساقه المبتورة ويده اليسرى شبه مشلولة وجد الوطن يفاوض على آخر أيام الاستقلال.. كل شيء كان أشبه بفيلم يشاهد عرضه النهائي متأخراً. رأى البداية ولم ير إلا نهاية سريعة ومقتضبة. استطاع الطبيب أن يعرف انتماءه، بأنه واحد من الخاوة، فقرر أن يبقيه عنده. لكن لا أحد من الرفاق اتصل به.. شعر بالقلق، وبالتوتر، ثم بالخيبة حين تالت الأيام دون أن يأتيه أحد. كان ما يزال متألماً من المهمة الأخيرة التي لم ينجزها. وربما استاء الرفاق منه للسبب ذاته، لفشله في الـ "واجب" الأخير. لكنه لم يكن يملك غير انتظارهم... حتى الطبيب اكتفى بأن وجد له مسكناً، وابتعد عنه متلهياً بأشغاله.. وجاء الاستقلال ولم يأتيه أحد من الرفاق القدامى..! كان وحيداً ومعزولاً، هو الذي برجل واحدة وبذراع شبه مشلولة فهم أن مستقبله لن يكون إلا في ذاكرته الشخصية، وأن عليه أن يعيش تلك الذاكرة بقداسة، ويحتفل مع الناس بالتواريخ الحقيقية لا المزيفة. لم يتزوج لأن النساء عفن شكله المربوط إلى الأحداث، ولأنه فقد إمكانية الزواج بعد أن صار عاجزاً عن فعل أي شيء سوى سرد الحكايات للناس كي يأكل معهم، ويتناول القهوة معهم، ويحس بوحدة أقل في وجودهم. مع الوقت، أراد أن يكون أقل عزلة، وأقل انكساراً وأقل عجزاً. في عام 1989، حين بلغ العربي الخمسين من العمر تزوج من أرملة لم ترفضه كي يعتني بابنها الوحيد. في تلك السنة سَوّت وزارة المجاهدين وضعيته كـ "مناضل سابق" وأقرّت حقه في راتب مستقر

"جزاء" خدماته للوطن عبر حوالة كانت تصله بريدياً كل شهرين،
من وطن يشكره على: الواجب!.....

...

هكذا يحكي "عمي العربي" عن تاريخه وعن ذاكرته المعطوبة
التي يشبّها بذاكرة الوطن.. يحكي فأجذني غير قادر على إيقافه.
أظهار بالنظر إلى نقطة بعيدة، لأجذني أركز على ما يقوله. وحين
يصمت يسقط برد غريب على المكان.

- اسمعني يا بني.. لا يمكننا أن نكره الوطن بسبب كرهنا
للرجال الذين يحكمونه، الوطن أكبر من هذا بكثير!

ولا أرد. أتمنى لو أنبش في ذاكرته بحثاً عن بعض التفاصيل التي
تبدو لي أحياناً جاهزة وفي أحيان أخرى مفبركة. فأسال: ما الفرق
بين ذاكرة طازجة وأخرى معطوبة؟

- لقد اغتالوا الرشيد!

قلتها له، فنظر إلي بحزن مدهش.. كأنه تذكر شيئاً مؤلماً. عاد
إلى سيجارته يدخنها بنهم. ثم قال بعد صمت دام دهرًا:

- الرشيد ضحية أفكار خاطئة، ضحية واقع خاطئ. ضحية وضع
خاطئ! مع ذلك مات الرشيد دفاعاً عن واجبه..!

يا لهذا الواجب الذي لا ينتهي. كيف يمكن تصديق واجب أرعن
هكذا؟ لماذا يموت الرشيد واجباً ولا يموت أولئك الذين يختبئون
خلف شعب ينقرض يومياً دفاعاً عنهم. لماذا لا تصيب الرصاصة
أولئك الذين يتاجرون بدم الناس في المحافل الدولية؟ لماذا يموت
الرشيد المليء بالأحلام والأمنيات. هو الذي حلم بزوجة يحبها
وتحبه وأطفال يراقبهم يكبرون وبيت تحيطه حديقة صغيرة يقضي
وقت شيخوخته المبكرة في الاعتناء بها. كيف يمكن للواجب أن

يكون بلا قلب إلى هذا الحد؟

- لقد عرف الرشيد من البداية ما ينتظره. إنه ضابط شرطة يعرف أنه يعيش على كف عفريت في هذه الظروف يا بني، لو خاف لترك عمله ولغادر البلاد كما فعل الآلاف غيره.. لو عاد الرشيد إلى الحياة لعاد إلى عمله في اليوم التالي.. لعاد لمطاردة القتلة والمجرمين بنفس القناعة وب نفس اليقين.. لو يعود ثانية، فسيلبس بذلته الزرقاء ويتأبط رشاشه للذهاب إلى شغله!

نظرت إلى "عمي العربي" ودفعت ثمن قهوته وهممت بالمغادرة قبل أن يشدني من ذراعي فجأة.. نظر إلي بعمق كأنه يعزيني أو كأنه يعزي نفسه. ربما لأنه يدري أن الرشيد لم يكن صديقي تماماً، ولم يكن صديقه، كان واحداً نشترك في معرفته.. واحداً نعرف أنه لن يأتي ثانية إلى هنا، وأنا لن نحكي عنه إلا بعبارة "كان"! تمنيت لو كانت لي قدرة على قول كلمة واحدة مفيدة لذلك الرجل الذي ظل ممسكاً بذراعي منتظراً مني أن أقول شيئاً ليقول ألف شيء..

- لن يفيدنا الحزن يا بني.. لا شيء يعوّض خسارتنا، ولا شيء يعوض خساراتكم أيها البتامي في وطن سرق اللصوص والقتلة قلبه! نظرت إليه، خيل إلي أنه سيبكي فجأة. ولكنه راح يتناول سيجارة أخرى ويشعلها ويمتص دخانها بصمت قريب من النواح.

...

"لنتعلم الكلام بلا إهانات ولنبدل جهداً كي يحترم أحدنا الآخر لأننا سنفترق في الأخير!"

لا أدري لماذا كانت تشدني هذه الجملة "لغارسيا ماركيز". كنت أجبرها في ذاكرتي كما لو أنه قالها لي. كنت في كل مرة أجد نفسي حزيناً حد الانكسار ألجأ إلى التعويض عبر ما أحفظه من

الجميل ومن الأشعار التي أنقلها إلى كراسة خاصة كي لا أنساها..
كي لا أخون فكرتها الأولى ولا أتشبت بكذبتها الأخيرة. أليست
القصائد كالمدن. نحبها لأنها تكذب علينا. لأنها تخدعنا وتشوه
أحلامنا بالشعر، وبالكلام المنمق والجاهز.. للقصيدة طعم
الذكريات أيضاً، لها جراح البدايات وعبث النهايات. كما المدن
تماماً حين تجرحنا عمداً وحين لا نجد غيرها لنسميها حبيبة!

إحساس كبير بالوجع سيطر عليّ طوال الوقت حين غادرت
"عمي العربي". كنت أريد أن أقول له شيئاً وحين لم أجد مناسباً من
الصمت غادرته. كان يخيّل إلي أنه أمسكني من ذراعي ليَجبرني على
الإصغاء لحكايته من جديد، كما سردها أول مرة.. كما يسردها
دائماً، بنفس التفاصيل التي يخيّل إليك وأنت تصغي إليها كما لو
كنت تصغي إلى برنامج إذاعي مسجل! صحيح أنني أجد أحياناً رغبة
في التحرش بذاكرته كي يحكي لي القصة نفسها، ولكنني من حيث
لا أدري أجدني أصاب بذات الملل الذي يصيبه هو نفسه حين يصل
إلى النهاية.. حين يظل يراقب فنجانه البارد، ويرمقني بطرف عينيه
منتظراً تعليقاً مني.. لن أنكر أن اغتيال الرشيد هزني بعمق. هل
يحدث لي كل هذا لأن صديقاً عابراً مات مقتولاً؟ صديقاً لم يكن
صديقي، لكنه كان صديق الذين عرفوه قبلي.. عرفوه أكثر مني..
صديق الذين أحبه أو مقتوه أكثر مني. لو كنت صديقه لحزنت عليه
أقل.. ولكن.. لن يجلس الرشيد قبالي ولن يلح عليّ بنخوته
الجزائرية ليدفع قيمة ما نشره أنا وهو! الرشيد الذي سألني ذات مرة
كمن يريد الوصول إلى سر خطير: ماذا تكتب؟ وتفاجأت جداً
يومها.. تحولت الدهشة إلى ارتباك لم يخف عليه.. ثم سرعان ما
انتابني حالة من الخجل قبالة عينيه. خجل حقيقي وصادق. يومها

تساءلت بيني وبين نفسي: ماذا أكتب فعلاً؟ ماذا يمكن لأحد أن يكتب في هذه البلاد؟ في زمن آخر كانت للكتابة خاصية مختلفة وطعم آخر.. كانت الكتابة تكفي لتقول شيئاً.. حين يسأل أحدهم الآخر ماذا يكتب يقول له: أكتب وطناً أعيشه. هل يمكن السكن في جملة أو في نص أو مقال؟ قد يضحك "الزعماء" كثيراً ولكن في النهاية، لا يسكن الأغبياء سوى في أحلامهم الصغيرة التي تتسبب أحياناً في قتلهم، أو في نفيهم أو في عزلهم.. لكن الكتابة اختلفت اليوم عما كانت عليه. لم تعد تعني وطناً نعيشه، بل تعني وطناً يغتالنا فندفنه في الكلام..

ماذا أكتب..؟ وجددتني أبتسم يومها. لم أجد رداً يقنعني، فابتسمت كمن ينهي حديثاً عقيماً.. لعل شكلي وقتها كان مثيراً للسخرية حين ضحك الرشيد فجأة.. ربت على كتفي كما يفعل عادة، بصدق لا يخلو من طيبة. ثم راح يرتشف قهوته ويحكي لي عن أشياء كانت تبدو لي حينها عادية.. عن أحلامه الصغيرة التي تتوسطها زوجة جميلة وبيت وأسرة يسكن الحب تفاصيلها.. كنت بدوري أبتسم، وأنظر إليه مصغياً باهتمام مثير للسخرية.. قبل أن يسألني فجأة: وأنت؟ ما هي أحلامك؟ وقبل أن أبلغ ريقى.. قبل أن أرتشف رشفة أخرى من قهوتي سألني كأنه انتبه إلى شيء خطير.. قال بصوت جاد حد الهلع:

- بصدق أجدني أنساءل أحيانا: من أنت حقا يا صاحبي؟

قالها وصمت منتظراً ردّي!

ابتلعت ريقى.. كنت أفكر بيني وبين نفسي عن إجابة يمكن قولها كرد عفوي.. عادة حين يسأل جزائري من أنت يقول بعفوية "والو.. «RIEN»! ليعني أنه لا شيء تماماً، بكل ما يعنيه اللا شيء

من معنى!! حتى عبارة جزائري حين يتباهى بعضهم بنطقها بالفرنسية: «ALGERIEN»، تتجسد عبارة RIEN، واضحة وبحروف استهلاكية كبيرة.. لتؤكد ذلك الـ "والو" الذي يتجلى أمامه..

من أنا حقاً؟

كانت قبالتني على جدار المقهى صورة كبيرة لرئيس الجمهورية وقد كتب أسفلها: يجب أن تكون شيئاً لتبني قناعتك لأجل ذاتك والوطن! وإن صدمتني الجملة لأنها مكتوبة بالفرنسية، إلا أنها أقنعتني أنني لا شيء قبالة صورة تذكرك أن الوطن عالة عليك وأنت عالة على أوطان الآخرين. فأيهما أحق بالرد على السؤال: أنا أم الوطن؟

من أنا حقاً؟

يا إلهي.. كم يبدو لي العمر خالياً من الجدوى!

* * *

من أنا؟

لعلي أفكر في تفاصيل البداية التي ظلت تطاردني كما ظلت تربطني إلى قناعاتي القديمة بأني لا أمثل شيئاً في النهاية! تشدني تلك البداية من يدي، بحميمية ذلك العام الصيفي الحار من أعوام 1972.. أجل أتذكر أيامها وأنا بعد في السادسة من العمر، حين كان يعرجني جدي من يدي ويصطحبني معه إلى نزحاته الغامضة في أطراف القرية. لم يكن جدي إقطاعياً بالمفهوم الكولونيالي القديم.. كان إقطاعياً بالمفهوم الجزائري الحديث. كان وقوراً وديكتاتورياً كما هو أي جزائري يجتهد ليكون مميزاً ومهماً و"فوق الجميع"! جدي الذي لا أتذكر من القرية شخصاً بقدر ما أتذكره هو.. جدي الذي حين يراني يشدني من يدي ويعرجني معه.. كنا نمشي على الأقدام على طول تلك الأرض الممتدة فوق تعب الناس. فوق عرقهم وأحلامهم الصغيرة أو الكبيرة، وكنت عبر تلك النزحات أتأمل مساحة الخير الذي كان يتباهى بها أمام الناس قبالة ملامح الفلاحين الذين يعملون عنده راضين تماماً عن أنفسهم، بضمير حي وطازج.. كان جدي يقول لي بصوته القوي الواثق والصارم:

- اسمع يا صغيري.. اسمعها جيداً من جدك. الرجال يكبرون بسرعة، لأنهم لا يملكون الوقت، لهذا يكبرون بسرعة!

يقولها ويطلب مني تأمل الأرض والاستمتاع بشساعتها.. تلك الأرض التي صادف أن تحمل القرية اسمها! "جنان الحاج عبد الله" الممتدة بين مداخل ومخارج القرية، فكان الناس يقولون "قرية

جنان الحاج عبد الله .

لم يكن لأحد حق مجادلة الاسم الثابت في أوراق القرية الرسمية، حتى حين قررت البلدية رسم طريق يلي القرية بين ناحيتين شرقية وغربية اضطر المسؤولون إلى التفاوض مع جدي على المشروع، لأن الطريق ستعبر أرضه، ولأنه سيد القرية الأهم بعد رئيس البلدية نفسه! جدي الكبير في عيون الفلاحين.. في عيون العاملين وحتى العاطلين عن العمل اعتبروه كبيراً بموجب أرضه الواسعة وبموجب الذين كانوا يعملون في الأرض مستفيدين مما كان يمنحه لهم. كنت أسمع إلى بعضهم يتكلم عن "رضا الفقراء" الذين كانوا يقتاتون من أرضه مقابل أن يكونوا راضين تماماً ومقتنعين أن الحاج عبد الله - الذي لم يكن مسؤولاً تابعاً للبلدية - قادر على فعل ما لم يقدر على فعله المسؤولون الرسميون أنفسهم! كان يخاطب الناس أحياناً بعبارة "إخواني" ليمتص غضبهم في حالات الغضب، ويقول "أبنائي" ليجبر الشباب على العمل في أرضه دونما إضافات أو تهديد بالرحيل إلى المدينة التي كانوا يحلمون بها.. مع ذلك، كان يقنعهم أن الأرض جزء من العرض، وأن من يتخلى عن الأرض كمن تخلى عن عرضه.. تلك مقاربة استطاعت أن تثير قناعة العديدين، بمن فيهم أولئك الذين كانوا يعتقدون أنهم أكثر وعياً من غيرهم.. أولئك الذين كان جدي يتصادم معهم أحياناً. ألم يكن المعلم واحداً منهم؟ ذلك المعلم الوسيم والفخور الذي لم يكن يأبه بأحد حين يقرّر انه على حق. كان أحياناً يخطب على الناس في المسجد يوم الجمعة، ليذكرهم أنهم أحراراً، وأن زمن الإقطاعيين قد ولى! كان الناس يحترمونه ويخافون من كلامه الكبير. كانوا يعرفون أنه قدم من المدينة وسيعود إليها ليقبوا هم في القرية. ولهذا

كانوا يصغون إليه بشيء لا يخلو من انبهار، وفي الوقت يعودون للعمل في أراضي الآخرين مقابل ما ينالونه من فتات يومي وإهانة مزمنة. أجل.. ذلك المعلم الذي كان يتفادى مصافحة الكبار، يتجنبهم كمن يتجنب الإصابة بمرض معد. يرفض التورط معهم في الكلمات. يمر أمامهم دون أن يقول شيئاً أحياناً، فيزدادون كرهاً له وحنقاً عليه، بينما يزداد هو غروراً قبالتهم، وقناعة أنه على حق. لم يكن المعلم صديق أحد، ولم يكن يدخل بيت أحد، ولا يقبل دعوة أحد، تماماً كما كان يتجنب الحضور إلى بيتنا حين يقرر جدي استدعاء أهل القرية لـ "زردة" يأكلون فيها مجاناً لأجل أن يدعوا له بطول العمر، والرزق والسلطة التي تصنع منه سيداً دائماً واستثنائياً. كان المعلم يغيب عن تلك المحافل متعمداً الغياب، ربما لاستفزاز أولئك الذين يؤسسون في النهاية "ديكور" القرية بكل تناقضاتها. وكان جدي يفتأظ منه ويعتبره شخصاً وقحاً ومغروراً قبالة "المهمين" الذين حين يمر من أمامهم، لم يكن يرتبك بل ولا يرف له جفن.. كان جدي يتضايق من ذلك التصرف ولا يخفي حنقه واشمئزازه ومع ذلك، حين لا يعكّر المعلم مزاجه، تبدو الأمور عادية، بل وطبيعية أيضاً قبالة رضا الناس الذين كانوا يكتفون بعبارة لإخواني التي كانت تعادل في اعتقادهم بينهم وبين جدي، ولو في جملة خطابية عادية أو فارغة، بالرغم من اضطهاد هذا الأخير لهم باسم العطف الأخوي.. كان جدي مدركاً أن الاعتناء بالأرض لن يحتاج لأكثر من أولئك الذين يعانون من الجوع، بحيث لا يجب أن تمنح للجائع فرصة للكلام، عليك أن تشغله بالعمل لينسى جوعه وعقله وليظل راضياً عنك.. قالها ذات يوم لصديقه "السي عثمان" رئيس البلدية الذي كانت تجمععه به صداقة غريبة، مبهمة وغير

مقنعة.. لم يكن السي عثمان صديق أحد، كان رئيس البلدية في قرية نائية، يقطعها في سيارته التي كان يصطحبها حارسان لأجل إعطاء الديكور حقه. كان الناس ينبهرون بذلك المشهد، ولا يتساءلون عن تفاصيله، سوى أنه مشهد السلطة التي تعنيها البلدية، ويعنيها الحرس الشخصي الذي كان يحرس جدي أيضاً في حالات تظهر فيها بوادر عصيان مفاجئ من الفلاحين حين يطالبون بأكثر من القوت!

كنت صغيراً إذًا. يصطحبني جدي معه في نزهاته اليومية متباهياً بالأرض ومنتقداً والذي الذي كان يصفه بالغبي لأنه ظل حزيناً ووفياً لامرأة أحبها عن واجب الحب.. امرأة ماتت وهي تضعني للحياة. كان أبي يشعر بالضغينة نحوي لأنه ربط بين حياتي وبين موت والدتي. ولعل الناس اعتبروا إخلاصه لوالدتي أمراً مبالغاً فيه، فكان جدي حين يتكلم عنه يقول "ذلك الشخص" ليعني ابنه.. ليعني أبي.. وكان "ذلك الشخص" يزداد عزلة وبعداً عنا.. وعني.. إلى أن خرج من البيت ومن القرية دونما رجعة.. فجأة اختفى "ذلك الشخص" الذي كان أبي. اختفى عن الأنظار.. ترك غيابه يغزل حكايات كثيرة.. قيل وقتها أن أبي فر هارباً من والده. ربما لأنهم ربطوا هروبه بقرار جدي بكسر وحدته بالزواج. كان جدي عازماً ذلك الصيف على تزويجه من ابنة رئيس البلدية التي لم يكن أحد من القرية يحبها.. كان الجميع يتكلمون عنها بصيغة "الغائب"، قيل أنها لم تكن تتزوج إلا لتخرب بيتاً، أو لتعود إلى أبيها أرملة فقد سبق لها الزواج مرتين والطلاق مرة واحدة بينما في المرة الثانية مات زوجها في حادث غريب. كان جدي على علم بذلك، ومع ذلك، أرادها زوجة لابنه.. كان يقول أن الأساس ليس في نوع

الزواج، بل في نتيجته، والحال أن نتيجته ستكون في ضم أرض أخرى إلى أرضه بموجب عقد القران الذي سيوقعه مع رئيس البلدية! لكن هروب أبي من البيت خلط الأوراق وكسر ظهر جدي الذي لم يكن له ابن غيره.. إنما كانت له ابنة وحيدة في الثلاثين، ينخر اليأس عظامها، بعد أن عجز في تزويجها بسبب شللها.. كانت عمتي جميلة وحزينة كمشهد يظل راسخاً في الذاكرة إلى الأبد. قيل أنها في السابعة من العمر أصيبت بحمى شديدة كادت تؤدي بحياتها، وحين لم تمت شلت. عمتي التي وجدتها حاضرة في غياب أم ماتت وهي تضعني للحياة.. وجدت صدرها وذلك الكرسي المتحرك الذي كان يلزمها، وكنت أدفعه بها أحياناً كي أجراها من مكان إلى مكان، مع أنها لم تكن تخرج قط من البيت إلا فيما ندر.. كنت أقاسمها الغرفة والسرير والصحن الذي تأكل فيه. أقاسمها الحوارات المبهمة، والفرح الغريب الذي كان يطرأ على محياها كلما فتحت ذراعيها لتضميني... لم يكن لي أب أتباهى به، منذ غادر أبي دونما رجعة، ولم تكن لي أم أحلم بأعيادي الحميمية في حضورها منذ ارتبط موت أمي بولادتي، ولكن كانت لي ذراعي عمتي وحضنها ويدها التي كانت تمسح بها على شعري. كان لي صوتها وحزنها وذاكرتها المعطوبة حد الشلل.. عمتي التي مع الوقت صارت تناديني "ابني" وصرت أناديها عن لا وعي: أمي..!

من أنا؟

في العاشرة من العمر، بدأت تتبلور أمامي أبعاد القرية النائية، بتفاصيلها ومدرستها الوحيدة التي كان يرسلني إليها جدي لأتعلم أشياء لم تكن تعنيني في النهاية. ولعل المعلم انتبه إلى عدم اكتراثي بالقدوم إلى المدرسة، كان أحياناً ينظر إلي ملياً ويقول فجأة: لا

تظن أن أرض جدك ستغنيك عما ستتعلمه هنا . ما ستلقاه في المدرسة لن يمنحك إياه أحد ولا حتى سلطة جدك ! ولم أكن أفهم . كنت أظل أبخلق فيه صامتاً ، ولعل شكلي كان يثير عطفه ويذكره أنني اليتيم الذي لم يجد يداً تربت على كتفه أو تمسح على رأسه خارج لعبة اللوم والعتاب . كان المعلم يبتسم لي بطريقة مختلفة ، ويمد يده إلي ويمسكني من يدي ويقول : أنت لا تشبه جدك .. كان يقولها وينظر إلي ملياً قبل أن يربت على كتفي . وكنت لسبب غامض أشعر بالفرح حين يشدني من يدي .. يدي التي كانت تثير "عطف" الآخرين عليها ، والتي عبرها أتلمس حدود المشاعر في نفسية من كان يتعاطف معي عن رغبة أو عن حاجة أو عن واجب .. كان المعلم يتأملني أحياناً لفترة طويلة ، وحين أظل أنظر إليه يبتسم بتلك الطريقة التي تثير فرحة غريبة في داخلي ، وتجعلني عن لا وعي أبتسم بدوري ، فيقول لي بنفس القناعة : أنت لا تشبه جدك . ثم ذات مرة ، قالها لي وهي يضغط على كتفي بكلتا يديه . ردها ثانية : لا يجب أن تشبه جدك ! في البداية شعرت بالخوف . كنت أعرف أن جدي لا يحبه كما لا يحبه أحد من كبار القرية ، مع ذلك .. من دون أن أفكر في العواقب كنت أنجذب إلى يده ، وإلى صوته وهو يذكّرني بأهمية المدرسة التي كنت أشعر بالحياد فيها أو قبالتها برغم تفوّقي فيها . كان المعلم يدرك ذلك تماماً ، ولعله حاول أن يقنعني أن الحياد يتعارض مع التفوق ، وأن التفوق وحده يكفي لأجل التقدم نحو الأمام وليس لأجل التقهقر نحو الخلف ! أتذكر جيداً ذلك اليوم الذي شدني فيه المعلم من يدي وأخذني معه إلى بيته الذي كان ملحقاتاً في المدرسة نفسها . كان للمدرسة مديرها الذي يسكن في الطابق الأول ، ومعلم اللغة الفرنسية يسكن في نفس الطابق الأول ،

وكان معلم العربية يسكن فوق السطح في غرفة شبه ضيقة. كان يسكن مع زوجته وابنيه.

هل كان عليّ مجاراة المعلم والانصياع إلى يده للذهاب إلى هناك؟ ربما كان عليّ أن ألتزم بتعاليم جدي دونما تراجع. كان جدي يذكرني أن الاختلاط بالناس يجر المشاكل، وأن أغلب الناس عبارة عن مشاكل متحركة! لهذا كان عليّ ألا أنجذب إلى تلك اليد وذلك الصوت الحميم الذي أحياناً يقول "يا بني" ليعنيني. لم يكن يقولها لي أحد مثلما كان يقولها المعلم، وربما كان ذلك سبباً آخر دعاني للحنان. جرتي إحساسي باليتم كي أتباهى أمام بقية الرفاق أنني ذهبت إلى بيت المعلم الذي لم يكن يفتح بيته لأحد. كنت أريد أن أثبت تميّزي لكل الناس بمن فيهم لجدي الذي كان يعايرني أحياناً بما فعله أبي..! ولم يكن يعنيني ما فعله أبي به أو بي. كنت لسبب غامض معني بالمعلم الذي ذهبت معه إلى بيته يومها. لا أعرف على أسرته. على ابنه "النذير" الذي كان يكبرني بعامين، وابنته التي تصغرني بعامين! لعلّي توقّعت مشهداً مختلفاً يومها. برغم أنني لم أكن في النهاية أعني شيئاً لأحد، إلا أن ذهابي إلى بيت المعلم جعلني أكتشف لأول مرة أن الناس ليسوا سيئين تماماً. اكتشفت أنني لست "وجه الشر" الذي ارتبط وجوده بالرحيل والغياب.. اكتشفت يومها أن أتحوّل من طفل مدلل وغبي، ابن رجل هارب وحفيد إقطاعي جزائري حديث، إلى طفل يكتشف أن الحياة يمكن أن تتحوّل إلى لعبة وركض ويبحث عن أشياء كانت تبدو مهمة برغم بساطتها أو تفاهتها أو سذاجتها. كنت أقضي عند المعلم ساعات من اليوم، أذاكر مع ابنه وأجلس مع ابنته التي تحب أن تحكي لي عن

أشياء كانت تبدو لي ضرورية لأبقى ولأجلس ولأصغي .. كنت أجد متعة مثيرة وأنا أحياناً أتححرر من عقدي الصغيرة وأجرهم للعب، والجري في أرض لم تكن تنتهي قبالة دهشتنا الصغيرة .. كنا نتسلق شجر الزيتون العالية. كنت في قرارة نفسي أبحث عن أشياء اعتقدت أنني سأعثر عليها في تلك المرتفعات. ربما كنت أبحث عن أمي .. تلك التي حين تحكي عنها عمتي تقول لي بصيغة الغائب: لقد صعدت أمك إلى الأعلى .. ولم أكن أدرك ذلك العلو إلا بالارتفاع وكان النذير وأخته يتسلقان معي. يسقطان حيناً وينجحان أحياناً. نجلس ثلاثتنا أعلى الشجرة ونأمل الأشياء من هناك. وحين لا نجد ما نفعله ننزل، فأشدهما من يديهما وأجرهما إلى بيتنا أمام نظرات جدّي الذي لم يكن يخفي امتعاضه مني وعدم رضاه على تلك الصداقة "الغريبة" بيني وبين أهل المعلم. كان الجميع يستغرب بينه وبين نفسه تلك الصداقة التي بدت لهم غير واضحة، بل وغريبة .. ربما أنا نفسي لم أكن لأفهم تلك الصداقة. كنت منجراً نحو تلك اليد التي كانت تربّت على كتفي وتمسح على شعري بحميمية مختلفة، وإصرار دافئ على قول أشياء لم يكن صعباً فهمها أو توقعها .. كان يكفيني أن أذهب إلى ذلك البيت، أطرق الباب افتتح لي تلك المرأة وتنظر إلي بعينين يغمرهما الفرح. تبتسم وتضميني قبل أن تضم ابنها وتسالني عن أخباري قبل أن تسأل عن أخبار ابنها أو ابنتها. كانت تفعل ذلك بعفوية مدهشة، كأنها تبنت تماماً فكرة أنني يتيم وأن الإشفاق على اليتيم يفتح أبواب الجنة!

حين بلغت العاشرة من العمر لم تعد تعينني تساؤلات الناس، ولم يكن يعينني أن أفسّر أسباب العلاقات التي تبدأ عادية أو تافهة لتتحول إلى قوية أو مهمة. لم أكن معنياً بضغينة جدّي نحو المعلم.

لم أكن معنياً بمعرفة أسبابها منذ فهمت أن جدّي يكره الرافضين الانصياع لأولئك الذين يعتبرون أنفسهم فوق الجميع .. - في داخل جدّي وفي داخل كل الإقطاعيين الجدد - كان المعلم برغم "سيئاته" مثيراً للإعجاب، وقد تمنى جدّي بينه وبين نفسه لو كان ابنه يشبه المعلم في جرأته ووقاحته التي صنعت منه شخصاً محترماً برغم كل شيء .. ألم يكسب المعلم إعجاب الغرباء أيضاً، حتى أولئك الذين كرهوه أعجبوا به في سرهم. كانوا يدركون أن الاختلاف بينه وبينهم يكمن في اليقين، والحال أن يقين المعلم كان في ما رآه علماً باقياً، بينما يقينهم هم تجسّد في الأرض التي كانوا يستعبدون الناس فيها. لعلني استطعت أن أسأل المعلم ذات مرة، لماذا يهتم بي أنا بالذات دون بقية الأطفال؟ فابتسم .. لعله صمت طويلاً قبل أن يقول:

- لأنك طيب. ولأنك تلميذ متفوق، ولأنني أريد أن تكون مختلفاً عن كل هؤلاء الذين يقودون القرية إلى التهلكة، وأولهم جدّك!

قالها وابتسم كثيراً بعدها .. ولم أفهم ولم يشرح لي أكثر. كنت واثقاً أنني أنجذب نحو قدر عجيب كلما جئت إلى ذلك البيت .. إلى تلك الأم التي تضمّني وتسأل عن يومي وأخباري، وإلى تلك الصغيرة التي كانت تمسك بيدي وتشدها بقوة كلما هاجمها الخوف أو الفزع .. تلك اليد التي أظل ممسكاً بها سعيداً وأقلّ يتمناً مما يظن الآخرون .. مع أنني في حالات ما، كنت أتحمس يتمي في غياب من كان لي حق في حضورهم .. أولئك الذين رحلوا اختياراً أو بقوا على مضض .. ثم في المساء أعود إلى عمّتي، مستعيداً حضنها الآخر، وصوتها المثير حين تحكي لي به حكايات أتمسك بتفاصيلها كلها .. ألم تكن عمّتي حكاية استثنائية؟ عمّتي التي كانت كل مساء تحكي لي عن جنية البحر .. تلك الجنية التي لم يعادلها أحد في

الجمال .. جنية البحر التي كانت تداعب أحلامي الصغيرة لأجدي
أغط في نوم عميق .. ألم تكن الجنية تحمل وجه عمتي أيضاً. ذلك
الوجه الجميل والحزين حد الانكسار .. وصوت يداعب مخيلتي في
حكاية تبدأ ب " يحكى أن " ..

كان في القرية وادي واسع وعميق يذهب الأطفال إليه
للاستحمام والتحدي قبالة بعضهم. كنت واحداً منهم، أصدق أن
للجنية عيون تراقبنا، وأنني أحق الناس برؤيتها من غيري .. في سباق
غريب كنا نسبح جميعنا في ذلك الوادي، ونتحدى بعضنا بالغطس ..
لم يكن يعني إثبات شيء لهم، كنت معنياً بالجنية التي لأجلها كنت
أستدرج الأطفال للغطس عاريين تماماً .. وكنت أسبح بعيداً
وأغامر .. كان بعضهم يصرخ خوفاً من التيار، والبعض الآخر ..
يجذبه التيار إلى الغرق! كنت أعني تماماً أن الجنية لن تأكلني أنا،
بل تأكل رفاقي الذين كنت أعود بهم إلى أهاليهم ميتين. رفاقي الذين
غرقوا في الوادي أمام عيني ..

لماذا لم أكن أغرق .. لماذا لم أكن أموت؟ كنت أستحق الموت
أكثر منهم لأنني من كان يستدرجهم إلى الوادي. كانوا يموتون بينما
أبقى أنا حيثما أكون. كنت أراهم يتشبثون بالفراغ، يصرخون وفجأة
ينقطع صراخهم. فلا أعرف كيف أنقذهم. لا أعرف كيف أجرهم
سريعاً إلى الشط ولا أعرف كيف أعيد الحياة إليهم. كنت أجتو على
ركبتي أمامهم وأنظر إليهم يموتون. لأبدأ بالبكاء عليهم! ثم أعود
دونهم إلى البيت. مع الوقت صار الناس يطلقون علي لقباً غريباً:
لاكامورا! شيئاً فشيئاً فهمت أن لكامورا تعني ببساطة من لا حق له
في الموت براحة! "لاكامورا" تشبه مدينة خرافية كتلك التي كان
يسكنها الرومانيون القدامى الذين اكتشفوا هباء الكون فاخثاروا

الخلاص. كانت "لاكامورا" مرتبطة بالرجال الوهميين وبالشجاعة الغامضة التي لم تكن سوى سيفاً صديئاً وحصاناً لا يركبه كل الناس. كانوا هم الذين صاغوا أولى أبجديات الموت وقوفاً.. الموت بما تبقى من كرامة تعجز عن الحياة في ظل الخسائر التي ارتبطت عندهم بالشرف. بيد أنه لم يكن للشرف نفس المعاني التي نعنيها اليوم!!! كان الشرف عندهم يعني حق البقاء، أكثر مما يعني حق الحياة التي - مع الوقت - ارتبطت أيضاً بالموت المقدس.. بحثيات التفاصيل التي يعرف قراءتها من صار يصطلح عليه أيضاً لقب "الساموراي" بكل ما تعنيه الكلمة من ضغينة خفية ومزمنة! ألم يكن الساموراي هو الشخص الوحيد الذي يجيد قتل نفسه ووضع حد لفشله وخيباته وما تجتره الذاكرة من عار. إذ يكفي أن يحول اتجاه سيفه إلى صدره لينهي القصة كلها ويرحل محملاً بشرف الموت واقفاً! والحال أن الناس لم يكونوا كلهم "ساموراي"، كان بعضهم يتفرج على تلك الميتات ويتفادها ليعيش طويلاً. وهذا هو الفارق الأبدي بين لكامورا والساموراي.. بين الشجاع اختياراً والبطل غروراً.. بين الحي و"اللا-حي" .. بين الشريف عن واجب، واللا-شريف عن قناعة!

مع ذلك، في خضم تلك الميتات المتتالية لرفاقي في الوادي، اكتشفت أن النذير هو الوحيد الذي لم أكن أستدرجه إلى هناك. كنت أعي أن والده الذي أحبني يخاف مني أيضاً، يخاف من ذلك الشؤم الذي يساير كلام الناس حين يتكلمون عني.. لكنه لم يقل شيئاً، ولم يحذرني من الوادي ولم يحذر ابنه مني.. كأنه كان واثقاً أنني لن أجر ابنه إلى هناك. كان يعرف أن "عطفه" علي سيكفل له وفائي له. ولسبب غامض لم أفكر في استدراج النذير إلى الوادي. كنت

أكتفي بالمرح معه في بيتهم، وأحياناً في المزرعة التي ترتمي على أرض جدي، نتسلل إلى الحقول، نتسلق الأشجار، ونعود إلى البيت سالمين! كنت لسبب غامض أيضاً أفعل ذلك لأجل تلك اليد الصغيرة التي كانت تمسكني من يدي وتحتمي بي، تضغط على يدي وتهمس لي "لا تبتعد عني" وكنت لا أبتعد، وأتشبث بحقي فيها حين أستدرجها إلي اللعب وحين أعود بها آمنة إلى أمها الممتنة لي.. ألم تكن تلك اليد الصغيرة سبباً في الحفاظ على حياة النذير، في عدم استدراجه لجنية الوادي؟

من أنا حقاً؟

أنا من كان يعود إلى عمته مبللاً بمياه الوادي. أتسلل خائفاً إلى فراشها وأغرس وجهي في حضنها لأصغي إلى الحكاية نفسها ولأنام نوماً عميقاً كمن لا ذنب له! أنا الذي صدّق أن الأحضان لا تنتهي، والحكايات لا تخدع أفكارها الجاهزة مسبقاً.. كنت واعياً من البداية أنني سيئ الحظ بموجب ما أخلفه من "شرور" أغلبها لم تكن بيدي، كنت ضحيتها أيضاً.. تلك الشرور التي كانت تبيع للناس التطيّر مني، ليس لأنني "لاكامورا" وليس لأنني "وجه شر" بل لأنني غير قابل للفرح تماماً، ولأن الخيبة تسكن وجداني منذ بداية الأرض! أليست تلك خيبة جرّها رحيل المعلم عن القرية؟ قيل أنه انتقل إلى العاصمة برغبة منه. ولكن.. كان يكفي النظر إلى وجه المعلم وقتها لمعرفة أنه لم يكن سعيداً بالمغادرة. كنت أعرف أنه لم يرحل بمحض إرادته وأن ثمة من رَحّله. حتى المعلم نفسه عرف أنه "يُعاقب" على ما ارتكبه من "إهانة" في وقار الآخرين. اكتشفت أن حزن المعلم ليس في انتقاله إلى العاصمة، بل في توقيفه عن العمل، فقد جاءته برقية من وزارة التربية تطلب منه العودة إلى العاصمة،

وكان مع البرقية قرار إيقافه عن العمل ابتداء من تاريخه. تاريخه الذي صادف العطلة الصيفية. لم يكن الأمر صدفة. ربما لأن الجميع توقع ذلك بشكل ما. منذ وقف المدير أمام رئيس البلدية الذي جاء في زيارة إلى المدرسة بمناسبة انتهاء العام، وألقى خطبة "الوداع" على مسمع أولئك الذين جاءوا ليتباهوا لنجاح أبنائهم. يومها تكلم المدير عن الإنجازات الكبيرة التي حققها رئيس البلدية للمدرسة ولأطفال القرية.. وضحك المعلم، وبدأت السخيرية جلية على ضحكته التي كانت مهينة ومقصود بها "الإساءة" لإنجازات رئيس البلدية ولجدي ولكل أعيان القرية الذين حضروا الحفل.. ثم حين أخذ المعلم الكلمة انتقد الوضعية المزرية التي تعيشها المدرسة. انتقد غياب أبسط الوسائل التعليمية. انتقد غياب الحافز للدراسة أساساً! كلمته تلك أثارت أعصاب الجميع، بمن فيهم المدير الذي ظل شاحباً قريباً من الإغماء. بينما واصل المعلم كلامه بنفس الثقة والرغبة في استفزاز الجميع دفعة واحدة، ثم حين انتهى طوى ورقته ووضعها في جيب سترته وابتسم كمن انتهى من شيء مهم. كان يعرف أنه سينال العقاب. ربما توقع عقاباً أعنف من التوبيخ وأخف من الطرد.. يومها، انتقد جدي ذلك المعلم أمام بقية الناس. انتقده كما لم ينتقده من قبل.. كان رئيس البلدية إلى جواره يصغي وهو صامت.. وحين انتهى من الكلام، قال له:

- اسمع يا الحاج عبد الله، المعلم شخص غد وسنعرف كيف نضعه في مكانه لا تشغل نفسك بهذا الأمر الثافه!

ولم يعلق جدي بشيء.. كان يعي أن رئيس البلدية قادر على وضع حد للمعلم.

ثم غادر المعلم القرية. كنت أعرف أنه سيغادر منذ قال لي:

اسمع يا بني. أريد أن تكون مختلفاً عن جدك. كن أنت. بكيانك المليء بالخير وبإحساسك نحو الآخرين. كن أنت فقط.. كانت تلك آخر مرة أراه فيها. يومها عانقني النذير كثيراً ويومها نزعت الصغيرة عقدها ووضعتة في يدي. كانت تبكي فجأة. وكنت لسبب غريب أشعر أنني أريد أن أبكي. كنت محتاجاً إلى البكاء بعد أن أصبحت يتيماً مرة أخرى. فجأة فرغت القرية منهم. فرغت القرية من الكلام الاستثنائي. من ذلك الركض في اتجاهات الحقول.. بفرح الكلام والضحك وتسلق قمم الأشجار لمراقبة الكون من أعالي المكان. فرغت القرية تماماً من الفرح. كان رئيس البلدية سعيداً بانتصاره على المعلم. قال إنه قدّم شكوى ضده وأن الوزارة ستعاقبه. وكان جدّي ممتناً له بذلك.

في غيابهم تحولت القرية إلى مكان موحش. كانت العطلة مملة ورتيبة، ولم أكن أفعل سوى الانتقال ما بين غرفة عمتي والإسطبل الذي كان يعمل فيه شخص مهذب وصامت وحزين. كان يعتني بالأبقار التي يتفاخر بها جدّي في إسطبله. كان يقوم بكل شيء تقريباً. ينظف الإسطبل.. يحلب البقرات وأحياناً يرافق القطيع إلى المرعى.. يجلب الماء، ويظل صامتاً كجدارية لا تعترف بالكلمات. كنت أحبه لأنه كان قليل الكلام. ومع ذلك، حين يراني يبتسم، ويربّت على كتفي. يسأل عني. عن العطلة، ثم فجأة يسألني عن جدّي.. ثم يسألني عن عمتي.. في البداية كنت مستغرباً سؤاله عن عمّتي، واستغربت أكثر حين سألتني عمّتي عنه. لكنني عرفت فيما بعد أن عامل الإسطبل طلب يد عمّتي من قبل وأن جدي رفضه. وأن عمّتي حين عرفت أن ثمة من طلبها أخذها الفضول لتعرف عنه كل شيء، لتعيش دوراً لم تكن قادرة على لعبه في الحقيقة، لعاشته في

الخيال. لعل أسئلتني عمتي عن العامل شجعتني لأحكي لها كثيراً عنه.. كنت أحياناً أخترع الكلام من رأسي لأحكيه لها، فقط لتصغي إلي. لعلني استحلّيت تلك المهمة الغامضة. كنت أحكي عن أحدهما للآخر. كنت أوصل رسائلهما الغامضة لبعض. تلك الرسائل التي لم أكن أفهمها وكانا يفهماها جيداً. كنت أعني أقوم بدور الفاصلة بين جملتين، والوصلة بين جسرين منهكين.. لم يكن الجسر يوصل لغير السؤال المقتضب والمسافة المزمّنة. لا شيء غير السؤال والصمت.. ثم ذات يوم حين شدني عامل الإسطبل من يدي وسحبني لأجلس قريباً منه، على كومة من القش طلب مني أن أنقل إلى عمتي رسالة. قال إن الرد يجب أن يكون اليوم. ولم تكن الرسالة واضحة، سوى في سؤال أرادني أن أطرحه عليها.. ركضت نحوها. نقلت إليها الرسالة/ السؤال فنظرت إليّ متعجبة ومرتبكة. انتظرت ردها. قلت لها إن الرد يجب أن يكون الآن، ولم ترد. طلبت مني أن أتركها وتركتها. نزلت دونما رد أحمله. كنت فارغ اليدين وأنا أدخل إلى الإسطبل أمام لهفة الرجل الحزين الذي اقترب مني وسألني عن الرد. حرّكت كتفي بإشارة النفي.. وبدا حزيناً فجأة.. لكنه خرج من الإسطبل مسرعاً. تابعتة بنظراتي وعرفت أنه متوجه نحو جدي..

ما الذي جرى يومها؟ لا أدري.. كنت ما زلت جالساً على كومة القش تلك، أنتظر رجوعه ولم يعد.. وحين صعدت إلى عمتي وجدتها تبكي بحرقة.. تمنيت أن أسأل عمتي لأفهم.. ماذا جرى فعلاً؟ لا أعرف. لا أحد يعرف ولا حتى عمتي. فقد اختفى الرجل. كان جدي غاضباً تلك الصبيحة. كان غاضباً جداً. ومع ذلك لم يبدو مستغرباً ولا مندهشاً حين علم أن عامل الإسطبل اختفى.. ولم يكن

ذلك كافياً بالنسبة لجدي الذي ظل مزمجرأً وثائراً.. كان صوته واصلاً إلى البيت كله. ولعله أراد أن يوصل صوته إلى عمتي التي انطوت على نفسها رعباً. لكم كنت خائفاً وقتها. خفت أن ينقلب عليّ أنا الذي كان صديقاً لعامل الإسطبل، أنا الذي كان يوصل الرسائل المبهمة والغامضة بينه وبين عمتي.. عرفت يومها أن جدي اتصل بالشرطة بعد أن اتهم عامل الإسطبل بالسرقة، فاضطر العامل للهرب خوفاً على نفسه من السجن. اكتشفت أن الناس عرفوا أن عامل الإسطبل عاد ليطلب يد عمتي للمرة الثانية وأن جدي رفضه مقدماً ضده شكوى في المخفر. واستغرب الناس كيف يرفض تزويجها وهي المشلولة التي لن يتزوجها أحد. كنت مصدوماً حقاً.. كانت خيبيتي تكمن في هرب عامل الإسطبل، لكم رغبت في بقاءه، تمنيت لو كان مصمماً على طلبه حتى لو اضطر إلى الهرب معها. فماذا يعني أن تهرب امرأة مشلولة من القرية؟ ألم يهرب أبي من قبل؟ لكن عمتي خافت من لعنة الكلام، ولهذا صمتت وانزوت رافضة الكلام والطعام والحياة.

ثم فجأة، ودونما سابق إنذار، ماتت عمتي. صدمة الموت الذي يأتي بغتة. كأنها لعبة نلعبها متظاهرين بالنوم العميق، واللا-حرك. ثم يفتح كل منا عينيه وينفجر بالضحك. لكن عمتي لم تفتح عينيها ولم تتحرك.. ولم تنفجر بالضحك. عمتي التي نامت ككل ليلة تنام فيها ولم تفق في الصباح. كنت رافضاً الفكرة تماماً. رافضاً أن تموت تلك الميتة التي لا عودة منها. رافضاً أن أعود يتيماً من جديد وقد رحل الذين أحبهم وتعودت عليهم. أتذكر وقوفي أمام جثتها الممددة وسط الدار أمام أعين النسوة الباقيات. كنت أريد منها أن تنهض. كنت أصرخ وأضرب على وجهها كي تفتح عينيها. ولم تفعل.

كانها لتنتقم مني أيضاً، أنا الذي يتطير الناس منه.. أنا لاكامورا الذي ارتبط وجوده برحيل الذين أحبهم.. والذين يحبهم. كنت يتيماً وأنا أصرخ وأضرب على الأرض وأبكي، ثم جاء جدي ينهربي بقوة لا تخلو من قسوة:

- كف عن هذا. توقف عن البكاء يا ابن الكلب. توقف عن البكاء!

لم يكن موت عمتي عادياً بالنسبة لسكان القرية. فجأة ارتبط رحيل عامل الإسطبل بموتها المطوق بالصدمة فقد كان أول وآخر رجل يتقدم إليها ورفضه والدها مرتين. كان جدي مجرمًا ومدانًا. جدي الذي كان يثير خوف الناس منه، صار ظلاً لنفسه، عندما بدأت نظرات الناس تتحول إلى شفقة لا تخلو من "شف" .. كانت الصدمة عظيمة، ليس في موت ابنته الوحيدة، بل في تفسير أسباب موتها، ومطالبة الناس له برّد مقنع على كل الإشاعات التي انتشرت في القرية انتشار النار في الهشيم.. رحيل عمتي بذلك الشكل قصم ظهره تماماً. سقط طريح الفراش. غير قادر على الحركة. بدت لي الأمور كلها تجري في دارة جنونية. كنت أعايش الهباء بمزيد من الهباء. غير قادر على فعل شيء، أمام الناس الذين توقفوا عن العمل في الأرض. أمام الأرض التي لم تعد تعطي الكثير.. كنت وحيداً فجأة وقد رحل الذين أحبهم. وحيداً أتأمل في لحظات الحزن والخوف والفجوعة ذلك العقد الصغير الذي كنت أدسه في جيبي.. كنت أفكر في المعلم الذي رحل دونما رجعة، وفي ذلك الحضن الذي كان يلّم مواجعي في لحظات من الصدق الجميل... كنت وحيداً جداً وقتها.

ثم ذات يوم، جاء رئيس البلدية ليزور جدي.. كانت تلك أول

مرة أراه في بيتنا منذ رحيل أبي من القرية. جاء ليزوره وليقترح عليه أن يبيعه الجزء الأيمن من الأرض. ذلك الجزء الذي يجانب الوادي.. الوادي الذي كنت ألعب فيه مع أطفال يقرقون.. ألم تكن الجنية جزءاً منه؟ ذلك الوادي الممتد من وإلى الحكاية نفسها.. كنت رافضاً أن يتنازل جدي عن تلك الجهة من الأرض. لكنه باعه إياها. لم يكن قادراً على الرفض وهو الذي أدرك أنني لن أختلف عن أبي وقد أرحل أنا أيضاً في أي وقت!

من أنا حقاً؟

رحيل المعلم، وموت عمتي ومرض جدي والبيت الذي صار مليئاً بالأشباح حد الوحشة. كنت أعني أنني قد أنهيت حياتي في ملجأ للأيتام، كأبي واحد يموت أهله فجأة في فيلم كلاسيكي مممل! كان جدي مشلولاً وعاجزاً عن التصرف. كلما جاء إليه رئيس البلدية يوافق جدي على بيعه جزء من الأرض إلى أن باعه إياها كلها. كان يخيل إلي أن جدي ينتقم من الأرض. كان يدرك أن الناس الذين تركوا العمل عنده سيعملون عند رئيس البلدية الذي لن يضطر إلى أن يقول لهم "إخواني" وأن سلطته تكفي لتصنع منهم عبيداً استثنائيين وإلى الأبد..

في الخامسة عشرة من العمر وجدتني أتفوق برغم كل شيء. لم أكن أتفوق انتقاماً من وضع لم يكن يعنيني في النهاية. كنت أتفوق انتقاماً من نفسي. ربما لأنني كنت أحلم بمغادرة القرية نحو العاصمة. فكرت أن المدينة تكفي لأتفوق في الدراسة لأجل ألا أكون واحداً من هؤلاء القطيع. لألا أكون مثل جدي أو رئيس البلدية أو الفلاحين أو البائسين الراضين عن أنفسهم.. كنت أريد التفوق لأجلي أنا.. أليس هذا ما وعدت به المعلم؟ لم أعد لأجل تحقيق

أمنية ربما لم تكن تعنيه تماماً، لكنها كانت تعنيني وتعني ذلك العقد الصغير الذي احتفظت به كما نحتفظ بذكرى وحيدة. لم أكن راغباً في إنهاء يومياتي في الملبأ أو عاملاً في أرض كانت لنا وصارت لرئيس البلدية. كان يهمني أن أتفوق، لأجل جدي الذي كان ينظر إلي بصمت مكسور كما ليدكرني ألا حق لي في الفشل الآن.. كان يتكلم بصعوبة بسبب المرض، ولكنه حين يتكلم يقول: أحسنت!

أحسنت؟ لم أكن أحسن شيئاً في النهاية. لم أفعل شيئاً سوى أنني بقيت أدرس عن حاجة إلى التفوق.. كنت حاضراً غائباً، أعني جيداً حدود الكارثة التي حلت.. ماذا يمكن لشخص في سني أن يهمله غير الكارثة؟ حتى ورئيس البلدية يأتي إلى جدي ليشتري البيت. سمعته يعد جدي أنه لن يتصرف في البيت إلا حين يصير خالياً من سكانه. ورأيت جدي وقد ازداد شحوبه وهو يقرر بيع البيت أيضاً. كنت أنا في التاسعة عشرة من العمر، في سنتي الثانوية الأخيرة، أحضر لامتحان البكالوريا وكنت جزءاً من الصفقة التي أبرمها رئيس البلدية بموجب صداقته الغامضة مع جدي، حتى وجدي يخبرني بصعوبة أنه سترك لي المبلغ في حسابي وأنه من هنا فصاعداً يجب أن أعتمد على نفسي.

كيف يمكن لشاب في التاسعة عشرة أن يعتمد على نفسه؟ كيف يمكن الاعتماد على النفس وسط هذه الفوضى واللا جدوى؟ كنت أذهب إلى الثانوية صباحاً ولا أرجع إلا مساءً منهكاً حد الموت.. ثم ذات يوم، حين رجعت أشد تعباً من أي يوم، وجدت جدي قد مات. كان الناس مجتمعين في بيتنا. وكنت كمن ينتهي من قصة بائسة. كنت واقفاً لا أعرف ماذا علي فعله. ليتني كنت قادراً على الفهم لماذا لا يحق للرجال البكاء؟ ليتني استطعت ذلك. حين فجأة

وجدتني أجهش بالبكاء قبالة نفسي. قبالة قرية وجدتني فيها عارياً
ويتماً.. وجدت رئيس البلدية يقف قبالي.. صافحني. وقال:

- لقد أصبحت رجلاً الآن ويمكنك الاعتماد على نفسك!

مددت يدي لأصافحه على مضض صامتا. كنت أعني جيداً أن
الاعتماد على النفس يبدأ بالرحيل من القرية.

من أنا حقاً؟

لست أدري.. ربما لأنني اكتشفت أيضاً أنني أخطأت في اختيار
الكلية التي ألتحق بها. كنت مستغرباً قبالة نفسي وأنا أكتشف أن
الكلليات التي أمامي لا تصلح وأنني غير منجذب لأي منها. ماذا
يمكن أن تصنع منك كلية جزائرية اليوم؟ لا شيء، سوى شهادة لن
تتعبد تماماً في الحصول عليها لأنك لن تجد ما تفعله بها أساساً
كما يقول الناس هنا! اكتشفت ذلك حين وصلت إلى العاصمة قبالة
أناس لا يتعاملون مع المدرسة إلا بعبارة "الله غالب" كأن يقول
الفاشل لفاشل آخر "واش تحب؟ الله غالب! الدراسة هي التي
خسرني ولست أنا من خسرها!" يقولها الناس ذلك أحياناً حين لم
يعد ثمة شيء آخر سوى تبرير هذه الحالة التي تجعلهم يكفون عن
إرسال أطفالهم إلى المدرسة لأنهم غير قادرين على توفير ثمن
الكتاب وثمان الخبز معاً. هالني أن الناس يربطون بين الشهادة
الجامعية وبين البطالة واللا عمل، فلا فرق هنا بين جامعي وبطال
أمام اللا عمل. أليس هذا ما رأيته بأم عيني حين بدأت أتعرف على
أجواء العاصمة. كنت وقتها أصدق أن بإمكانني أن ألبس ذاكرة
جديدة وأتجرد من هباء الماضي الصغير والسطحي الذي حملني من
القرية إلى المدينة.. كنت وقتها أسجل في سنتي الجامعية الأولى
بكلية العلوم السياسية دونما حماس لشيء. أتذكر حين سألني جدّي

ذات مرة ماذا سأكون عليه حين أكبر؟ وجددني لا أعرف ماذا سأكون عليه، وإن بدا صمتي يومها مثيراً للغباء، إلا أنني لم أكن أدري حقاً ماذا سأكون عليه حين أكبر. لم أحلم بأن أكون طبيباً ولا مهندساً ولا زبلاً. كنت أريد أن أدرس فقط. كنت أجد في الدراسة السبب الوحيد الذي كان يجعلني غير عاطل في نظر الآخرين.. حين وصلت إلى العاصمة، وجددني أبحث عن المعلم. وجددني أستغرب بحثي عنه بعد كل تلك السنين. من يبحث عن الأشباح؟ لا أحد.. .. علي استغربت أكثر أنني لم أفكر في البحث عن والدي. كنت غير معني بالبحث عنه، ربما لأنني شعرت من البداية أن الموتى لا يعودون، وأن الذين يسكنون الأحلام هم الذين يعيشون إلى الأبد!

من أنا حقاً؟

أفكر في تلك الأعوام.. أفكر أكثر أنني لم أحقق في دراستي الجامعية شيئاً يمكن التباهي به أمام أحد.. كنت معنياً بالتفوق لا أكثر ولا أقل. بأن أكون أفضل طالب يربت الأستاذ على كتفه قائلاً له: أحسنت. كمن يعزّيه على ما سيأتي، حتى والأمر يثير حسد بقية الطلاب الذين لم يكونوا يستوعبون حرصي على الدراسة والحضور في مواعيدي المضبوطة بينما هم يعتبرون الجامعة واجهة فقط، يمكن التغطية عبرها على أشياء كثيرة، بما فيه على الفشل. كان بعض الطلبة يتباهون بالفشل أحياناً ليقبوا طلبة جامعيين إلى الأبد، لئلا يغادروا ذلك المكان الذي يصلونه في سياراتهم الخاصة. كان بعض الطلبة يعتبرون أنفسهم استثنائيين بموجب تلك السيارات الخاصة التي يركبونها وبموجب مواقعهم الاجتماعية كأبناء "الأسياء"! كنت أشعر أن عالم الجامعة يعكس لوحده واقع البلاد بكل بلادته.. كنت أعلم أنني خرجت من قرية صغيرة وبائسة لأدخل

إلى قرية كبيرة وأكبر بؤسا. كانت العاصمة تبدو لي قرية كبيرة وموحشة فقد شعرت أنني أشبه ذلك الممثل الذي يظل يدور في حلقة مفرغة معتقداً أنه يؤدي الدور الأهم، وحين تنتهي المسرحية يكتشف أنه لم يفعل شيئاً سوى الدوران حول نفسه. ألم يكن الواقع سيركاً يومياً؟ الواقع الذي جعلني أكتشف أن اليتامى كثيرون، حتى أولئك الذين يتباهون بآبائهم أمامك يبدون أشد يتماً منك. يتحسسون يتمهم بالتباهي. ويشهرون تلك البطاقة الصغيرة التي تقول أن والده "مدير عام في مؤسسة وطنية كبيرة" أو مسؤول كبير في جهاز الدولة" أو ضابط في الجيش! كانوا يتباهون برتب آبائهم أكثر مما يتباهون بآبائهم أنفسهم. كانوا يقولون "أبي مسؤول كبير" ولم يقل أحدا منهم "أبي رجل رائع"! لا أحد كان يتكلم عن أبيه بصيغة المودة، بل عن حاجة إلى الرتبة التي يحتلها ليحل مشاكله اليومية عبرها. ذلك كان عالم الجامعة وعالم أولئك الذين يدخلون إليها بحثاً عن شيء ما... عن شهادة لن يحتاجونها في الحقيقة لأن الوساطة أهم من الشهادة. من ذا الذي يشتغل بشهادته حقاً؟ لا أحد، لأن الجميع يعمل بموجب الوساطة. حتى الزبالين يحتاجون إلى الوساطة لينظفوا الشوارع من القمامات التي يخلفها الـ "مهمين" و "المحترمين"! أعترف أنني في خضم ذلك الدوار الرهيب الذي كنت قباليته، وجدتني أنصاع إلى حاجة العمل وأنا بعد في الجامعة.. تفوقني جعل الأساتذة يقترحون ضمي إلى جريدة الجامعة. لم تكن في الحقيقة سوى صحيفة بائسة تصدرها الجامعة متباهية بالحق في التعبير، بيد أنه لم يكن ثمة أي حق في شيء، سوى الكتابة عن انجازات أولئك الذين يطلق عليهم الأساتذة لقلب "أصحاب السعادة" ليعني أولئك الذين يدفعون له راتبه! كنت في

سنتي الثالثة وقتها حين وجدتنني أشرف على تلك الصحيفة التي لم يكن أحد مهتماً بما تنشره أصلاً. وجدتنني فجأة أجدها لعبة مثيرة. لعبة التعامل مع الصحافة من باب "التمنشير" كما يقول الجزائري الشعبي، وأنا أحياناً أكتب أشياء على جدار الجامعة ليجده الطلبة في الصباح مكتوباً باللون الأسود أو الأحمر. كأن أقول " طز في أصحاب السعادة" الذين يراقبون يتمنا بالتشفي التاريخي ذاته! ومع ذلك لم تكن تلك التجربة إلا انعكاساً لشيء غريب كنت أشعر فجأة به. شيء مدهش وقابل للتصديق.. شيء لم أكن أعلم أن دخولي "الخطأ" إليه يجعلني أرتبط به إلى الأبد. ألم تكن تلك التجربة العادية سبباً في اكتشافني أنني بحثت عن التفوق لأجل أن أقول كلمتي التي أبدو بحاجة أزلية إلى قولها. لم تكن الصحافة إلا الجدار الذي وجدت نفسي أكتب عليه ليس عن واجب وليس عن حاجة، بل عن قناعة أنني لأول مرة في حياتي أختار شيئاً لا أدخله خطأ!!

حين تخرجت من الجامعة وجدتنني أتوظف في جريدة يومية كصحفي بائس!

* * *

- السلام عليكم... عاش من شافك. وين غطست يا صاحبي؟

صافحني بحرارة غريبة وجلس قبالي.. كان ينظر إلي مبتسماً، خيل إلي انه سيقول "افتقدتك" كما يقولها صديق لصديقه. لكنني شعرت أنني سأضحك حتما لو قالها لي، ربما لأنه لم يكن صديقي. ولأنه - وهذا الأهم - ليس صديق أحداً! كنت حين أنظر إليه أتساءل دائماً عما يفكر فيه؟ كان كثير الكلام، قليل الصبر، فيخيل إليك أنه يتكلم كي لا يقول شيئاً أساساً وأنك حين تجالسه يظل الحذر ضرورياً كي لا تتورط معه في جملة اسمية واحدة.. كنت أتساءل دوماً بكثير من الضجر: كيف يمكن التورط مع هذا الشخص في كلام عفوي؟!

- وأنت. واش راك؟ Comment ça va?

- ما تشكرش، الحالة صارت "ميرد" Merde!، ربي يستر يا خويا لعزيز!

صمت لحظة ثم عاد يقول كمن يعترف بسر لصديق:

- هل سمعت بالقنبلة التي انفجرت في مقهى (La rose) في العاصمة؟

و قبل أن يصله ردي أضاف:

- إنها كارثة. ما يجري كارثة حقيقية، فليس أشد وطأة على المرء من خسارة وطن! نشعر أننا يتامى حقيقيين!

.....

- إيه يا خويا، اللي داروها راهم مخبيين رأسهم. أولادهم راهم في فرنسا ولانجليز. إحنا اللي نخلص وإحنا اللي نموت في

.....

- كأن الوطن صار كذبة يا صاحبي. اللي باعوا الوطن هم الذين يتكلمون عنه بحماس.. الذين بقوا من الشعب يموتون كلما تصادموا مع ماهية الوطن، حين لا نجد شيئاً نقوله نصمت وحين نجد شيئاً نقوله نموت. هذا هو الواقع يا خويا.

لا يمكنني إخفاء ابتسامتي حين أسمعه يحكي بتلك الطريقة التي تذكرني دائماً أنه ابن ضابط كبير على المعاش. كان يختلف عن الجميع في الرأي وفي الأسلوب. سرعان ما صار "المهدي" واحداً من الناس، منذ صارت تصل إلى أبيه رسائل تهديد بالقتل. فجأة تسلل الخوف إلى أبيه. كان قبل تقاعده مسؤولاً في إدارة السجون، وبالتالي كانت للتهديدات معان كثيرة، متشعبة ومختلطة..

المهدي. زميلي السابق في الجامعة.. ها هو يجر اليوم عمره الثلاثين. لم يتزوج لأنه لم يجد امرأة تناسبه. فجأة، صار يريد لها متحجبة ومتدينة، هو الذي كان ينام في "الخمارات" والكازينوهات! كان واحداً من جيل يحتمي بالشارات العسكرية التي وضعها والده على كتفيه ليكون زعيماً على مجموعة من الطائعين طواعية، لهذا، أيام سنواته العشرين كان "المهدي" يمشي مصحوباً بحارسين شخصيين. كانت له سيارته الخاصة وشقته الخاصة التي لم يكن الجيران يجرؤون على الشكوى ضد الصخب والـ"عيش" الرغيد الذي كان يمارسه فيها مع نساء كن يأتين إليه راغبات في سلطة وهمية ومقابل يسميه الجزائريون "التشبية*" كعلاقة وصل بين "سلطة" نظرية وسلطة "عملية" لا يمكن الوصول إليهما بالطرق الشريفة. لم يكن المهدي صديقاً لي، لم أكن صديقه، كان يحب

إحاطة نفسه بالجميع ، عن حاجة إلى الناس حوله. كانت هذه طريقته في التباهي بأهمية والده كمسؤول كبير.. كنت أعرف أن هذا النوع من الناس لا يمكنه أن يمنحك أكثر من إحساس بالضغينة إزاء نفسك وإزاء الآخرين. لهذا كنت أتفاداه قدر الإمكان، ليس عن خوف، بل عن رغبة في تفادي المرض! كان المهدي والمرضى متشابهين في كل شيء.. ومع ذلك، يوم طلب مني مرافقته إلى شقته، شعرت بالفضول والخوف. الفضول في معرفة الذين يأتون إليه، من الرجال والنساء، والخوف من أن أتورط في شيء لم أكن مستعداً في التورط معه فيه.. كنت أكره غروره، واعتماده على سلطة ليست له، وكنت في الوقت نفسه أشعر بحاجة إلى تلك السلطة بشكل ما، ربما لأنحرر من تلك الضغينة المطلقة التي كانت تحتكرني كيفما شاءت. لهذا كله ذهبت إلى شقته تلك الليلة. كنت أتوقع رؤية ما رأيته. تلك النسوة اللاتي كن أحياناً أكبر منه سناً، والكؤوس التي كانت تدور، والصخب الرهيب.. كنت جالساً أتأمل مشهداً توقعته بحذافيره، وبالتالي وجدت نفسي أتناول كأساً وأرتشف منه بصمت لا يخلو من حزن. لم يكن من السهل وقتها أن أبرد حزني. كنت حزيناً فقط، حتى وأنا أتناول بالرجولة لأتذوق نساء كن يرمين أنفسهن علي، كنت أشعر أنني أتورط في شيء أرفض التورط فيه، شيء لا علاقة له بالجنس ولا بالكؤوس الحمراء تلك.. بل له علاقة بالذين تقسم معهم نخب شيء تعي أنه سوف يسيء إليك طويلاً. لهذا السبب رفضت البقاء. ضحك "المهدي" كثيراً واتهمني بالجبن. ولم أكرث. خرجت من الشقة فاتحاً أزارار قميصي للهواء.. ذلك هو "المهدي" الذي كان يحكي عن الوطن، يصوره كغول هلامي وخرافي. "المهدي" الذي يريد اليوم زوجة

متحجة لم يذقها رجل في شقة صاخبة ولم يتقاسمها مع رفاقه على
نخب صداقة غامضة تتحكم فيها المخاوف والأخطار.

- واش تدير يا خويا، البلاد ما صارتش بلاد، صارت "بيدون

زبل" Une poubelle! حاشاك!

قالها وأضاف بسرعة كأنه يخشى رداً لا يعجبه:

- البركة في أولئك الذين حققوا أحلامهم باسمنا. أولئك الذين
لأجل حياتهم يحتاجون إلى قتلنا واحداً واحداً.. لا مناص من
الموت.. لأن القتلة صاروا أكثر من الشرفاء، ولأن الشرفاء يموتون
كل يوم، أو يرحلون كي لا يتورطوا معنا في نفس الوطن/
الفضيحة!

شعرت بغصة تخنقني. ليس لأنني بقيت صامتا طوال الوقت، بل
لأنني شعرت أن الكلمات تخون الفكرة. وأن الأفكار التي تخرج
على شكل تنهدات هي التي تقول الحقيقة. كان "المهدي" ينظر
إلي، يتأملني كأنه يراني لأول مرة. رأيت في عينيه شيئاً لم أحبه،
كأنها الضغينة القديمة. أعرف جيداً ذلك البريق في عينيه، لكن
الأمر تغيرت.. قبل خمسة أعوام، كانت الأمور قابلة للفهم حتى
في أسوأ معايرها، لكنها مسدودة الآن ومليئة بالضغينة. لا شيء
سوى هذه الكراهية الغامضة التي تستوطن القلوب والأرواح
والأحلام..

- واش تحب يا صاحبي، هذه بلد كلب وأبناء كلب!

ها "المهدي" يتكلم. المهدي الذي عاش على حساب غيره،
والذي في سن الواحدة والعشرين دهس زميلاً له في الجامعة لأنه
اختلف معه في الرأي. "المهدي" الذي كان يتعامل مع الآخرين
بنجوم أبيه، وحراسه الشخصيين المستفيدين من الأوضاع أكثر مما

كان يستفيد منها الآخرون. "المهدي" الذي كان - قبل سنوات - يشرب الخمر كما يشرب الماء، ها يحكي عن "أبناء الكلب" الذين قادوا البلاد إلى التهلكة! تمنيت لو كانت لي القدرة على الضحك. آه لو كنت قادراً على الضحك يا "المهدي"، لضحكت على نخب هذا السيرك الذي ندور فيه وحوله باسم: الكلام!

كنت أنظر إليه صامتاً، ذلك المهدي "غريب الأطوار، بقدر ما تجنبته كنت فضولياً إزاء حياته الغريبة. كنت في الحقيقة فضولياً إزاء حياته الخاصة.. تلك التي لم يكن يعرفها إلا شخص واحد: "نبيل" ..

كان "النبيل" صديقه وعشيقة أيضاً! أعترف أنني لم أستغرب يوم سمعت وبشكل سري أن "المهدي" يعاني من شذوذ جنسي. لم يكن يميل إلى النساء قط، كان يجلبهن إلى شقته كديكور لينزع عنه التهمة اللاصقة به، فكان يوزع تلك النسوة على حراسه وضيوفه ويبقى هو منتظراً أن يأتي "النبيل"، وحين ينام الجميع، وحين تكون الخمر قد أتت على عقولهم، يدخل معه إلى غرفة النوم.. لم يكن "النبيل" صديقي أيضاً، كان واحداً من زمرة الطلبة المتفوقين على الرغم من فقره وإحساسه بالنقص إزاء الآخرين. قيل أنه قبل بـ "وظيفة" معاشره "المهدي" (جنسياً) لأجل ما يمنحه له هذا الأخير من مال ومن سلطة ووجاهة معاً. بمعنى أنه كان يشتغل عنده شغلاً خاصاً جداً! بدت لي الحكاية مثيرة للسخرية. لم يكن صعباً تصديقها برغم أنها ظلت ممنوعة وسرية لا يحق الجهر بها. ويوم مات "النبيل" في حادث سيارة غامض بدأ الكلام يكبر وبدأت الشكوك تحوم بعد أن عرف الجميع أن سيارة سبور حمراء اللون مكشوفة الغطاء صدمته.. كانت للمهدي سيارته السبور الحمراء التي لم يستغن عنها إلا بعد

وقوع الحادث.. استطاع والده أن يثبت أن السيارة سرقت من ابنه يوماً قبل الجريمة.. وعاد "المهدي" إلى الكلية بسيارة جديدة، منطوياً على نفسه. بعدها، شعرنا أنه تغير، أو ربما أراد أن يوحي بأنه تغير.. ففي تلك المرة كان الجميع يستحق الموت في عينيه!

نظر "المهدي" نحوي وقال فجأة:

- وأنت ما جديدك يا صاحبي.. أما زلت تعتقد أن الصحافة ستحل المشاكل؟ الصحافة بنت كلب يا صاحبي!

ابتسمت رغماً عني.. ربما لأنني رغبت في الابتسامة كردة فعل مناسبة إزاء ذلك المشهد الذي جعلني أجلس قبالة هو بالذات. كنت كمن يقرأ في كتاب بالمقلوب، كمن يفك رسالة مكتوبة بحروف هيروغليفية على جدار تآكل قبل ألف عام. هل كان عليّ إيجاد الأعذار للفاشلين أيضاً، لأولئك الذين فشلوا في الكلام وفي التعليق على الكلام؟ أنا واحد من هؤلاء أيضاً.. أنا واحد من الذين يبيعون الكلام للناس. يبيعون الوهم ويكذبون باسم الحقيقة التي ماتت قبل أن تولد. أنا كل الوهم واللا شيء معاً. فهل كان عليّ أن أجد الأعذار للفاشلين في الحياة والحلم معاً؟

ما جدوى الصحافة؟ قالها لي المهدي متهمكماً. بصيغة مليئة بالإدانة المغلفة. مع ذلك اشتغلت في الصحافة. عن إصرار على العمل في مجال وجدت أنني بقيت أبحث عنه طويلاً. كنت في الكثير من الأحيان أصاب بالإحباط قبالة واقع لم يكن يجلب سوى العار. لم يكن ثمة من يقرأ فعلاً، لأن لا شيء كان يكتب أصلاً. لكنني كنت صحفياً في مدينة تباع الصحف للناس كي يمسحوا بأوراقها زجاج السيارات أو زجاج الشبابيك المغلقة! فما جدوى الصحافة؟

كنت أعرف ألا جدوى من الصحافة سوى الكتابة.. كتابة ما نظنه ضرورة، ويظنه الآخرون وقاحة. ربما لأن الكتابة في تلك الظروف كانت وقاحة فعلاً في نظر السادة والرجال "المحترمين" لأنها تحولت لأول مرة إلى إدانة مباشرة، كأن يوجه الصحفي سؤالاً عفوياً إلى أي مسؤول قائلاً له: من أين لك هذا؟ ليتحول السؤال إلى تهمة وتتحول التهمة إلى حق يستغله المسؤول لاعتقال الصحفي بتهمة "القذف" والتشنيع!

ما جدوى الصحافة؟ لا شيء. كنت مقتنعاً أنني لا أفعل شيئاً سوى الكتابة. فكرت دائماً أن أول شيء يجب فعله هو كتابة مذكرة وطن! كنت مهووساً بتلك الفكرة، مقتنعاً أن لي ما أقوله أيضاً. لعلّي صدقت حقاً أن الحقيقة هي جزء من تلك المذكرات التي حلمت بكتابتها. كنت في الحقيقة أكره أن يكتب الأشخاص سيرتهم الذاتية ليلبسوا ذاكرة ليست لهم. أكره مذكرات الأشخاص، لكنني أحب مذكرات الأوطان. كثيراً ما تساءلت لماذا لا يكتب الوطن مذكراته؟ لأنه لا يملك ما يقوله؟ لأنه يرفض ارتداء ذاكرة ليست له؟ للأوطان قدرة عجيبة على إقناعنا أنها تنتظر من يكتب لأجلها شيئاً ينصفها، ويقول شيئاً يعبر عن رأيها ولا يخونها في عبارة مهما كانت صغيرة. ربما لهذا السبب وجدتني أزداد قناعة أن الكتابة جزء من حلم حميم لا يمكن بلوغه إلا بالموت! بعد عامين قضيتهما في الصحافة المكتوبة كصحفي بائس، وجدتني أكتشف لا جدوى من الصحافة فعلاً.. كنت أكتب قليلاً. كان رئيس التحرير يلغي ما أكتبه، ويذكرني أنني صحفي ولست "شرطياً اجتماعياً" وأن دور الصحفي هو كتابة ما يمكن إيصاله إلى الناس من دون أن يصدمهم! من دون أن يكسرهم! كان يتكلم عن الصحف المستقلة التي بدأت

تظهر في أواخر الثمانينات.. صحف بدأت تتناول الوطن بأسلوب مغاير عن الصحافة "الواحدة"، في طريقة انتقادها للأوضاع الداخلية، لوضع البلاد الذي كان في الحقيقة على صدر الصحف الأجنبية التي كانت تجد متعة رهيبة في البصق علينا باسم حرية التعبير. كنت أشعر بالاستياء بيني وبين نفسي، ربما لأنني رغبت في التوقف عن العمل الصحفي. كنت بحاجة إلى عدم الكتابة بدل أن يلغي رئيس التحرير مقالاتي بحجة أنها تغذي اليأس في نفوس الناس! لعلني فكرت في الاستقالة فعلاً لولا أنني ذات مرة رأيت اسمه. كنت وقتها أنتقي صحيفتين مستقلتين ظهرت في تلك الفترة، انتقيتهما سرّاً لأطلع عليهما بعيداً عن عيون زملاء الذين كان بعضهم يراقب حركات وتصرفات الآخر بكثير من الريبة والشك.. لكنني رأيت اسمه، وبدا لي مثيراً أن أرى اسمه في تلك الصحيفة التي ظهرت حديثاً. أجل كان هو النذير الذي بحثت عنه طويلاً، بطريقة ما. لعلني لم أبحث عنه بقدر ما كنت أبحث عن تلك السنوات المدهشة التي تقاسم فيها ذاكرتي أو تقاسمت فيها ذاكرته، ولعلني كنت أبحث بيني وبين نفسي عن تلك الصغيرة التي مرت من هنا تاركة عقدها الصغير في يدي. تلك التي كانت حين تخاف تشدني من ذراعي وتضغط. وحين تضحك تمسكني من يدي كأنها تتحسس وجودي في لحظة من الفرح الذي كنا نتقاسمه بصدق لا يخلو من سذاجة. ولعلني بحثت عن المعلم الذي جاء فجأة وغادر فجأة تاركاً يده على كتفي وصوته الذي أشعر أنه غيّر الكثير في شخصيتي، برغم مروره السريع على ذاكرتي المكتظة بالخيبات.. أو ربما بحثت عن تلك الأم التي كانت حين تفتح لي الباب تبتسم بطريقة تجعلني أفرح فجأة.. تلك التي كانت تضميني قبل أن تضم

ابنها وتسألني عن أخباري .. أجل، بحثت عنهم كلهم. لم يكن الأمر عادياً ولا واجباً حتى وأنا أقتنع أن السنوات مسحت خطواتنا من تلك الطريق الضيق الذي عبرناه في القرية، أو من القرية. كنت أعني أن لا أحد يتذكرني تماماً وأنني من يتذكر الجميع بكثير من الناسالغيا عن حاجة إلى السلوى وإلى البكاء على شيء نعي جيداً أنه لن يعود كما كان .. يومها أخذت حنيني وذهبت باتجاه مقر الجريدة المستقلة. لم أفكر في البداية، ولا في اللقاء الأول بعد كل تلك السنوات. لم أسأل نفسي هل سيتذكرني؟ هل سيقول لي: هذا أنت؟ أم أنه سيضمني كما يفعل صديق نحو صديق يفترقه؟ لم أسأل نفسي هل تغير أم لم يزل كما في ذاكرتي صغيراً وهادئاً وعميقاً؟ أنا نفسي تغيرت. تغيرت كثيراً ولم أعد أحتفظ من الأشياء سوى السلوى أو الضغينة المغلفة بالصمت. لم أعد شيئاً سوى ما تبقى من شخص فقد أحلامه الأولى ويبدو جاهزاً ليفقد ما تبقى منها، في خضم كل هذه الحالة/ الخراب! ذهبت إليه. أوقفني حارس الجريدة ووجدتني أشهر في وجهه بطاقتي المهنية. زم شفتيه بكثير من الضجر وسمح لي بالدخول. دخلت بوابة صغيرة ومشيت على طول العمر الذي بدا لي ضيقاً وشبه مظلماً. ثم دخلت بوابة أخرى أصغر من الأولى وصعدت سلماً ضيقاً. استغرق هذا الكثير من الارتباك مني. وجدتني خائفاً فجأة. ماذا يمكنني قوله له؟ كيف يمكنني أن أبدأ كلاماً تشعر في قرارة أنفسنا أنه لم يعد يعني نفس المعاني القديمة؟ كيف يمكن الالتقاء بوجه نعرفه من قبل؟ وجه فقدناه في زحمة العمر الهارب إلى الغموض واللاجدوى والتعب الصغير الذي يصير كبيراً مع الوقت، مع حدة الأسئلة اليومية التي لا نجد جواباً لها. كيف نلتقي بصديق؟

حين دخلت، واجهتني قاعة كبيرة مليئة بالصحفيين الجالسين حول طاولة مستديرة.. وجدتني أبحث بعيني عن وجه أعرفه. ثم دخلني الشك. أيمن أن نعر هنا على وجه طفل غادر مع أبيه قبل عدة أعوام؟ كيف يمكن البحث عن طفل في قاعة التحرير؟ شعرت بالخيبة وأنا أكتشف أنني أخطأت وما كان عليّ القدوم إلى هنا قبل أن أتصل وأؤكد.. فجأة، اقترب مني أحدهم يسألني عن ماذا أبحث؟ نظرت إلى سائلي بخيبة أكبر.. عن ماذا يبحث شخص مثلي في قاعة تحرير مكتظة بالوجوه؟ عن رجل كان طفلاً يركض معي في حقول قرية غادرها قبل الأوان؟ نظرت إلى سائلي وقلت له بصوت أردته عادياً: هل يمكنك أن تدلني على الأستاذ النذير؟ ودون أن يرد أشار بيده إلى اليسار، حيث ممر صغير مشيته لأجدني في غرفة ضيقة حد الاختناق.. غرفة يتوسطها مكتب صغير تتكدس فوقه الأوراق والملفات والكتب المصفوفة بشكل فوضوي. رأيت رجلاً مستغرقاً في الكلام عبر الهاتف. خفق قلبي فجأة. هل هو النذير؟ كان شاباً وسيماً ونحيفاً، قلق الحركات وهو يتكلم في الهاتف ملوْحاً بيده في الهواء بطريقة بدت لي مضحكة. كأنه يرسم أو كأنه يكتب. بدا لي صغيراً بشارب رقيق كأنه رسمه بقلم الرصاص! وقفت أنظر إليه، ولعل وقوفي بدا مربباً حين رفع الرجل عينيه نحوي. وتوقف عن الكلام فجأة. تأملني بعمق.. لم يقل شيئاً، كان ينظر إليّ بحذر. ثم بدا لي عصبياً وهو يرمقني بعينين لا تعرفانني.. سألني بصوت لا يخلو من جفاف:

- من أنت؟

و استغربت. لم أفكر أن يسألني من أنت؟ لعلني شعرت بالخيبة بيني وبين نفسي قبالة ذلك السؤال. من أنا؟. فكرت أن أقول رداً

مقنعاً، ولكنني وجدتهني أقول بشيء من الحزن:

- واش راك النذير؟

كان دوره في الاستغراب.. وجدتهني أجلس قبالة دون حتى أن يطلب مني الجلوس وأقول بصوت حيادي لا يخلو من ضجر.

- حين عرفت أنك تعمل هنا جئت لأراك، مقنعاً أنك نسيتني تماماً. لن ألومك على ذلك، فقد مضت سنوات من القرية إلى الآن. سنوات طويلة ومتعبة!

تكلم في الهاتف مع محدثه منهيأ المكالمة التي ظلت عالقة طوال دقيقتين. نظر إلي مستغرباً قبل أن يفتح عينيه أكثر وأكثر مبتسماً فجأة:

- يا إلهي. هذا أنت؟

- أجل! هذا أنا!

بسرعة بدت لي مدروسة، وجدته أمامي فاتحاً ذراعيه لي. فجأة بدا عناق له متأخراً. شعرت بغصة ربما ناتجة عن إحساسي بالإهانة كونه لم يعرفني أول مرة. ثم فكرت أنني أنا نفسي لم أعرفه. وأنه لو مر أمامي في الشارع لما استوقفني مروره. شعرت أن هذا كفيل ليحفظ لي ماء الوجه أمام كرامتي.. عانقته بدوري بأكثر حرارة.

- واش راك يا خويا العزيز. واش راك؟

قالها لي ضاحكاً. ووجدتهني أحكي له عن كل شيء.. في جلسة واحدة حكيت له عن تفاصيل أردتها مقنعة كي لا تثير الشفقة في عينيه. حتى حين أخبرته أنني أشتغل في الصحافة بدا مستغرباً وضحك ضحكة مجلجلة بدت لي مهينة.

- يا إلهي. من كان يظن أن نلتقي وتكون زميل مهنة. غير معقول.

أنت تختار الصحافة؟ لماذا؟

وابتلعت ريقى وأنا أحاول الابتسامة فقط. وجدنتى كى لا أجيب
أسأله عنه وعن أخبارهم جميعاً وبدأت أصغى إليه..

فى نصف ساعة عرفت منه ما توقعت معرفته. ربما توقعت أن
يموت والده حاملاً إحساسه القديم بالضغينة والظلم. والده الذى عاد
إلى العاصمة ليجد نفسه معاقباً بالطرد بتهم كثيرة أكبرها التناول
على الأسىاد. فجأة وجد نفسه خالياً من العمل. وجد نفسه مطالباً أن
يكون أقل "حرصاً على الواجب" ليعيش أطول مدة ممكنة. ذلك
الرجل الذى كان مليئاً بالواجب. لكم تخيلت شكله وهو يكتشف لا
جدوى الواجب أمام أسرة يتوجب عليه إطعام أفواه أفرادها. تخيلت
شكله وهو يبحث عن عمل، أى عمل مهما كان بائساً. تخيلته وهو
يكتفى بالعمل بائعاً فى متجر. ذلك الرجل الذى كان يطلب منى أن
أكون متميزاً انتهى به الأمر إلى بائع فى متجر سرعان ما تخلى عنه
صاحب المتجر لقلة الحيلة.. فكان عليه أن يجد عملاً جديداً، وأن
يتخلى عن مزيد من الواجب إزاء قناعاته الشخصية. ذلك الرجل
الذى كان معلماً قبل أن يصبح بائعاً فى متجر لينتهى به الأمر إلى
"حمال" فى الميناء. قال لى النذير أنهم لم يعرفوا عمله الجديد..
لا أحد كان يعرف أن المعلم الوقور والمحترم صار حمالاً، ولا
حتى زوجته كانت تعرف.. ظلت معتقدة أنه ما يزال بائعاً بسيطاً بلا
أهمية تذكر.. لكن ذات مرة، مرض فجأة ونقله عمال الميناء إلى
البيت. كان مريضاً دون أن يعرف أحداً بمرضه الذى منعه من العمل
لفترة من الزمن، لكنه بمجرد أن شعر بالتحسن حتى عاد إلى
الميناء، وعاد مريضاً إلى أن مات. مات حاملاً حزنه الشخصى
وانكساره الكبير. مات تاركاً عائلة مصدومة بذلك الرحيل المفاجئ.
كان النذير فى الثانوية العامة حين توفي والده وحين قررت أمه أن

تحاول سد الثغرة بالعمل في مصنع خياطة قريب من البيت. كانت تخرج من البيت صباحاً وترجع في المساء متعبة ومجروحة. تلك التي كانت تعتقد أن واجب البقاء يحتم عليها الدفاع عن كرامة مجروحة مسبقاً. لم يكن ثمة حل آخر، لأن الوالدة رفضت أن يترك ابنها مدرسته ليعمل قبل الأوان. كان النذير يعمل في العطل عند نجار علّمه النجارة ووظفه عنده في العطل مقابل راتب زهيد كان يكفي ليسد به حاجاته هو.. حكى عن أخته التي صارت طبيبة.. حكى لي عن شقيقه الأصغر الذي ولد في العاصمة عاماً بعد مغادرتهم القرية. وحكى عن الصحافة التي دخلها عن سابق إصرار وترصد. دخلها كما يدخل المرء إلى جريمة يريد اقترافها كاملة. كان سعيداً وهو يحكي لي عن عمله، وعن رئاسته للقسم السياسي في صحيفة رأت النور في عالم الصحف المستقلة بالبلاد. حكى عن حلمه بأن تصبح له جريدته الخاصة. كنت أصغي إليه. لم أقاطعه حتى حين كان يرن الهاتف بين الحين والآخر، فيردّ بسرعة واقتضاب، وحين لم يعد البقاء في المكتب ممكناً جرّني من يدي وجذبني معه إلى الخارج. لشد ما هي مثيرة الأشياء حين تبدو لي حقيقية حدّ اللمس. هل كنت لأتوقع أن أخرج من عنده ومعه مفعماً ومليئاً حد الغرور؟ لشد ما هي مثيرة لعبة الكلمات والذاكرة المفتوحة على حكايات الجنية. تلك الحكاية التي كانت تسلقني أو كنت أتسلقها موشحاً بالأحلام الصغيرة. كنت أصغي إلى النذير بصمت قريب من القداسة. كنت أتجنب التنفس بصوت كي لا يصمت. كنت أتشبث بالنظرات العميقة ليستمر. ليقول. وليحكي. في يوم واحد عرفت منه ما يكفي لأمشي معه ما تبقى من المسيرة، ولأسمح ليده أن تسقط على كتفي وتربّته بدفء لا يخلو من

إنسانية ..

أخبرني النذير أنه لم يعد يزور أمه منذ وصلت الاغتيالات إلى الشارع الذي يسكنه. فقد اغتيل الكثير من الأشخاص الذين عرفهم، ضباط وصحفيون وموظفون عاديون. صار الحي خطيراً منذ صارت مقالاته مقروءة، ومنذ تحوّل من صحفي جزائري إلى "مارق جزائري" ! ولم أضف. ربما لأنني أنا نفسي لا أسكن في أي مكان أساساً. منذ استأجرت أستوديو صغيراً وسخيفاً في مكان لا يوصل إلى شيء .. اقترحت عليه المكان ليقيم معي فيه فضحك .. لكنه لم يرفض ولم يقبل..!

هل كان لهذا اللقاء أثر على حياتي؟ أجل .. لن أنكر. فجأة وجدتني أقل وحدة مما كنت، ربما لأنني اكتشفت أن التشارك في المآسي أعمق من التشارك في الأفراح، وأن النذير ملأ حياتي من حيث لا يدري. كان يكفي أن يعود بي إلى القرية لأفهم أنه جزء من ذاكرتي، حتى إن غادرها مبكراً. النذير الذي يعني كل تفاصيلي الجميلة، يعني ذلك العقد الذي أخفيته عن الناس جميعاً، والذي أذكر صاحبه الصغيرة بقلب ما زال يرتبك فرحاً. كنت أبتسم بيني وبين نفسي وأنا أتساءل: هل تذكرني تلك الصغيرة؟ النذير نفسه لم يتذكرني لو لم أذكره بي .. فكيف ستتذكرني هي؟ هي التي صارت طيبة.

كنت أعني من البداية أنني أعيش حلماً عميقاً عشته بطريقي من دون أن يكون الآخر مجبراً على عيشه معي بنفس الحدة. ربما لأنني ما زلت أتحمس يدي كلما فكرت في تلك اليد الصغيرة التي كانت تضغط عليّ في لحظات الخوف .. كنت على اتصال مستمر به عبر الهاتف، كنت أزوره. أو يأتيني إلى شقتي الصغيرة في أوقات أنتظره

فيها. "النذير" الذي بقدر ما كنت أحبه بقدر ما كنت أخافه أحياناً... كانت بيننا صداقة مبنية على رخام الذاكرة والكلام، وتلك القناعات التي لم تكن بالضرورة هي نفسها التي يؤمن بها كلانا معاً... كان بيننا جلسات على حافة مقعد وقرية نائية. رغم ذلك كنت أعني أنني لن أخسر معه شيئاً، لأنني في النهاية ليس عندي ما أخسره أساساً منذ أفقت على حقيقة ألا شيء صار قيماً فعلاً للمحافظة عليه! ولعله الشيء نفسه الذي كنت أختلف فيه معه، فهو يظل يردد لي دوماً أن قيمة الإنسان في دفاعه عن قيمة وطنه. كنت أبتسم دونما رغبة في التعليق... كنت أنظر إليه حين يحكي لي عن قناعاته التي لم تكن تختلف في النهاية عن قناعات والده الذي انتهى إلى حمّال في الميناء عن واجب في "إطعام" أفواه أبنائه. القيمة والوطن... كنت أتساءل عن قيمة الوطن الذي نعيش فيه حقاً؟ ما الوطن؟ ما الإنسان؟ وما القيمة؟ من يقدر على تحديد هذه المفاهيم؟ هل يكمن الإنسان في المبدأ. وهل ثمة مبدأ لم يعد متورطاً في مصلحة؟ ألم يعد الوطن نفسه مصلحة كبيرة؟ كنت راغباً في قول أشياء كثيرة له ولكن... ما الجدوى. لم يكن النذير خصمي. كان صديقاً احترمه منذ البداية... احترمه عن حب. كنت دائماً أتوق لسؤاله عن تلك الجنية التي سكنت ذاكرتي في مسارات القرية النائية ورحلت تاركة عقدها الصغير معي. تمنيت أن أزورها، من باب الفضول، لكنني خفت. شعرت بخوف غريب. تساءلت: ماذا لو أدارت ظهرها لي دون أن تتذكرني؟ كانت ستقتل أشياء جميلة في داخلي ولهذا تمسكت بالسلوى والفكرة الأولى. تلك الفكرة التي أرجع إليها حين أصاب بالكآبة، وحين يلفني الوطن في هالة من الخوف. فكرت أن الحلم أبقى من واقع يقتل الأحلام عمداً، وأن

عزائي في قدرتي على القول أن الذاكرة تحتفظ برائحة الأماكن بنفس
الوفاء الذي تحفظ فيه برائحة الأشخاص!

ذات يوم، جاءني النذير ليلاً، دخل مستعيناً بنسخة من المفتاح
الذي أهديته له ليأتي وقتما يشاء. كنت نائماً حين أيقظني. فتحت
عيني مرعوباً لأجده يبتسم تلك الابتسامة التي لا تخلو من طفولة
ومن مكر.. قال لي بصوت مليء بالفرح الطفولي أنه وجد من يدعم
حلمه القديم. وجد من يساعده على تأسيس جريدة مستقلة جديدة.
وأن الحلم سيصبح حقيقة! كنت شبه نائم وشبه مستيقظ. وكان النذير
يحكي ويحكي ويحكي. حين توقف عن الكلام سألته:

- جريدة مستقلة؟ صحيح؟

نظر إلي وكأن سؤالي أثار خيبته:

- نعم جريدة مستقلة. جريدة سيكون لنا حق بناء فكرتها عن
جدارة.

سألته بنفس الصوت:

- ما اسمها؟

نظر إلي بنفس الخيبة وقد توقع أن أسأله سؤالاً أهم. لكن مع
ذلك رد بابتسامة ساخرة:

- سيكون اسمها: مدى الجزائر!

وكان دوري أن ابتسمت.. مدى الجزائر..؟ يا لها من شعارات
جاهزة، أشبه بأغنية نكررها عن لا وعي لنكتشف أنها سايرت
خيباتنا وأنها في النهاية أغنية انكسارنا الأول. لم أعلق كثيراً يومها،
كنت صامتاً غير مكترث كمن يتفرج من نافذة بيته على عرس بعيد!
وقبل أن أصل معه إلى حوار حقيقي، وجدته يقترح عليّ العمل معه.
في البداية، اعتقدت أنه يسخر مني، لكنه كان جاداً. ودونما تفكير

وافقت. كنت أريد هذا العمل كي لا أقف على الهامش فارغ اليدين
وكي أكتب أخيراً شيئاً حقيقياً لا يحذفه أحد. كنت بحاجة إلى
الكتابة لنفسى بالخصوص.. كنت أريد أن أبرّر لنفسى تلك الضغينة
التي تسكنني، وأدافع عن أشياء آمنت من البداية أنها تعينني وحدي.
تعينني أنا فقط. كان شرط " النذير " هو أن أقبل العمل تحت
أوامره، وكان صمتي يعني أنني موافق!

يوم جلست في ذلك المكتب الضيق الخالي من التكييف الذي
تفوح منه رائحة الرطوبة، شعرت بحميمية مدهشة نحو المكان، نحو
تلك الرطوبة التي تتدلى من الجدران.. شعرت يومها أنني أريد أن
أكتب، وأن الكتابة في النهاية صارت قدرتي الوحيد. حتى والنذير
يسألني في اليوم التالي من انطلاق الجريدة الجديدة عن الوضع
العام. اعترفت له بحبي للمكان فضحك. ضحك تلك الضحكة
الواضحة والمليئة بالمكر معا. قال وهو ينظر إليّ بتمعن:

- يسعدني ذلك، ولعلمك كان هذا المكتب مستودعاً للخردوات!

- لا يهمني ماضي المكان، المهم ما سيكون عليه بعد الآن..

كانت نظراته ممزوجة بحب غريب وبإعجاب لا يخلو من ذكاء..

بعد صمت عاد يقول:

- المهم أن يكون مرورنا على المكان إيجابياً. لا يمكننا التباهي

بالفشل حتى لو ارتكبناه عن لا قصد!

- الفشل والنجاح والمرض والموت.. كلها مصطلحات لم تعد

تقول شيئاً حقيقياً يا صاحبي. حين نعتقد أننا نجحنا نكتشف أننا

خسرنا أشياء أهم مما كسبناه. الفكرة عندي مرتبطة بقدرتنا على تقبل

هذا أو ذاك..

- معك حق!

و قبل أن أردّ بشيء ابتسم من جديد وقال:
- العمل الذي ندخله هو تجربتنا الجديدة. لا وقت للكتابة عن
الوهم.. إنه زمن الفجيعة والحقيقة!

لعلي ابتلعت ريقِي. كنت أكره هذا النوع من الاستفزاز المغلف.
كأنه كان يذكرني أنني كنت ضمن النخبة التي تفننت في أداء دور
العالة على المجتمع. النخبة التي كانت جزءاً من الوطن الآخر الذي
لا يعرفه كل الناس. شعرت بالإهانة أن تصدر تلك الملاحظة من
شخص مثل النذير الذي يبدو كأنه يبيع أحلاماً أكبر منه وربما لا
يؤمن بها هو نفسه لكنه في النهاية يدافع عن مصلحة يجدها في
الكلام ذاته، في القضايا التي يعتقد أنه ولد ليموت لأجلها. في
الحرية التي قد لا يلتزم بها لو تتأتى له، في العدالة التي قد يخونها
لو صارت في يده، في الحب الذي قد يغتاله لنفس المصلحة
والمصلحة المضادة؟ الفرق بين "النذير" و"المهدي" مثلاً أن الأول
يعلن بوضوح عن "مصلحه" التي يدافع عنها، والثاني "يجعلها"
سراً ليخفي عبرها خطاياهِ الكثيرة. كنت أنا واحداً فقط، كمن فقد
ذاكرته في بداية الطريق، وكان عليه أن يمشي حافياً كالبوديين،
وعارياً كالصوفيين.

* * *

كلما اعتقدت أنني نجحت في النسيان يحضرني وجه الرشيد
ليسألني: من أنت حقاً يا صاحبي؟ من أنا حقاً يا الرشيد؟ وكم من
الأعوام عشت لأبدو هراً من الداخل إلى هذا الحد؟ عشت أبحث
عني في تفاصيل مدينة اكتشفت أنها لا تعنيني تماماً. ثلاثون عاماً من
الإحباط والفرح الكاذب والانكسار اليومي قبالة تاريخ لا يقول
الحقيقة. ففي الثلاثين من العمر يصير العمر أشبه بكذبة أبريل.
تساءلت كم من العمر يجب أن نستغرقه لنموت تلك الميته الأخيرة؟
كم من العمر علينا أن نجتزّه لنصل إلى يقين واحد يحمينا من رُهاب
الوقت؟ في العشرين يشعر المرء بالعجز التام عن الفرّج بعشريّته
فلا يعرف ماذا يفعل بها، وفي الثلاثين يصير الخوف واقعاً ممتداً
من القلب إلى القلب. في الأربعين يتحول الخوف إلى حادث مرور
يصيب الفؤاد كل يوم.. في الخمسين يتحول الأمر إلى رغبة عارمة
في الموت. كيفما كان شكل الموت! هل ثمة إنسان سعيد في هذه
البلاد سوى فاقدِي القلب والذاكرة؟ حتى المجانين لم تعد لهم رغبة
التظاهر بالسعادة بجنونهم. اتضح أن عدد المجانين يتضاعف يومياً
بحيث لم يعد ممكناً حبس مجنون واحد في مستشفى الأمراض
العقلية، في الوقت الذي يوجد فيه أكثر من ثلاثين مليون جزائري
مشروع جنون واختلال عقلي. لن تتسع المستشفيات لهم لهذا تقرر
تركهم لجنونهم الذي ينعكس على وجوههم بحيث يتحولون إلى
مجرد "غاشي" لا أكثر ولا أقل.. فما جدوانا في هذا العالم إذن؟
لم يكن "الرشيد" قد تجاوز الثلاثين حين قتلوه. كان يقنع نفسه أنه
سعيد لمجرد أنه يقوم بواجبه. بمجرد أنه في المساء يلتقي بأهله

ويلتقي بأصدقائه في مقهى الحي متسللاً كسارق. هو الذي في العام الأخير لم يعد يرتدي بذلته الرسمية في الأماكن العامة. تحوّل إلى شخص لا رتبة له. مجرد شخص ينزل إلى عمله مسالماً ويعود آخر الليل إلى أمه وإلى حبيبة كان يلتقي بها في صالة الشاي ليحكى لها عن أشياء لم يكن يقولها لغيرها. كان الحب لعنة أخرى طاردته حتى وهو يتحوّل من عاشق إلى مشروع ضحية... لا أنكر أنني شعرت بالخوف أنا أيضاً. أصبحت معروفاً في سنة واحدة من العمل في الصحيفة الجديدة، ربما لأنني ارتأيت نشر صورتني أمام عامودي اليومي، كشكل من أشكال البقاء والإصرار على البقاء. كنت حين أرتاد ذلك المقهى الشعبي في عين المكان، أجد دوماً من يعرفني.. من يقول "هذا هو الجورناليست". كان البعض يطلق عليّ لقب الـ"جورناليست" من باب السخرية أو التهجم أو الاثنين معاً! لعلّي تباهيت قليلاً بهكذا لقب. شعرت بالغرور به فلم أكن أعلق كثيراً سوى بابتسامة لا تخلو من سخف! ثم مع الوقت تسلّل الخوف إليّ. أن تكون كاتباً أو صحفياً في هذه المدينة فأنت مشروع ضحية أيضاً. مشروع مقتول. مشروع ميت. فلا فرق بين كاتب وزبال حين تقرر جماعة مسلحة القضاء عليك. حين يقرر أحد أن يكون ناطقاً رسمياً باسم عزرائيل. يظهر فجأة ليظهر مسدسه في وجهك قائلاً لك: لك الموت يا طاغوت! في لغة العنف كان الطاغوت هو كل شخص، وهو أي شخص. الطاغوت هو أب العائلة الذي يكدح لأجل قوت أبنائه، وهو المثقف وهو الطبيب والمحامي والشرطي والعسكري. كل واحد لا يفكر كما يفكر القاتل بمثابة الطاغوت الذي يستحق "التصفية" ويسقط عليه حكم القصاص من أمير الجماعة الذي يحلم "بدولة طواغيت جدد" يملكون حق العقاب والعفو، ويملكون حق

الحياة والموت! كنت أجهد نفسي للرد على سؤال بسيط مفاده: ماذا يجري حقاً؟ فأنا لست من الناس الذين يصدّقون الرواية الرسمية التي تتكلم عن "المسلحين" كما لو أنهم جاءوا من كوكب آخر. كما لو أنهم سقطوا "براشوت" ليعيشوا في الأرض فساداً! من يقتل من؟ من يشعل النار في حقول الآخرين؟ من يرمي الناس في الفضاء؟ ولماذا يموت الناس بسبب خطأ لم يرتكبه؟

أتذكّر يوم ذهبنا إلى إحدى المدارس في منطقة تعرّض سكانها إلى مجزرة لم ينج منها إلا القليل، ولكي تثبت البلدية أن لديها "رجال واقفون" قررت إعادة فتح المدرسة واستدعت إلى هذه التظاهرة العديد من الشخصيات التي لم يأت منها أحد خوفاً من الكمائن المنصوبة وسط الطريق من قبل الإرهابيين. لكن الذين جاءوا رأوا مثلي مدرسة واقفة بالكاد على عماد منحور، محاطة بالكثير من الكتابات الجدارية التي نسي المنظمون مسحها. كتابات بعضها خربشات سريعة ومرتبكة والبعض الآخر مكتوبة باللون الأحمر تهديداً للسكان بالقتل والإبادة. كانت سيارتنا الصحفية متوجهة إلى تلك القرية متبوعة بسيارتي أمن وسيارة أخرى يقودها رئيس البلدية بنفسه. ذهبنا لنغطي افتتاح مدرسة لم نعثر فيها على أمل قابل للحديث عنه، لا شيء سوى رائحة الدم والموت القابع في عيون من بقوا من أطفال جلبهم الديكور إلى هناك لالتقاط صور لهم قبالة الكارثة. كان هنالك طفل قالوا إن الجماعة الإرهابية اغتالت كل أفراد عائلته، وأنه الوحيد الذي في لحظة رعب قررت أمه أن تخفيه في كيس الدقيق.. كان رئيس البلدية يتكلم عن "حظ" هذا الطفل الذي بقي على قيد الحياة! الطفل الذي كان ينظر إلى الكون بضغينة لا يمكن النظر إليها دون الشعور بالذنب. ضغينة شاسعة

وملموسة. ربما ضغينة مماثلة ضد أمه التي ماتت ذبحاً في الوقت الذي قررت أن تبقيه حياً. كانت في عينيه انكسارات الوطن وتقاطعات الكارثة والوجع اليومي في عتاب العمر. حاولنا الكلام معه، لكن صمته الشديد كان حزاماً واقياً من الآخرين. كان متمسكاً بصمته، لا شيء سوى عينيه وما فيهما من كلام بعضه موجه وبعضه مبكي والباقي مليء بالإدانة. يومها، كنت مطالباً بكتابة تحقيق عن المجزرة والمدرسة، ووجدتني لا أفعل سوى التقاط صورة ذلك الطفل الذي بقيت عيناه تطارداني أينما ذهبت. طفل لم يكن لي الوقت لأسأل عن اسمه، أو عما سيفعله الآن، بعد أن انتهى الوطن في عينيه مع نهاية أولئك الذين أحبهم وكانوا ذات يوم أهله.. هل يمكن لوطن أن يعيش بعد مجزرة؟ تعيش الأكاذيب التي نلفقها عن الحلم والوطن القادم.. وتعيش الخيانة التي عبرها نسمي هذا الطفل ضحية ونسمي من قتل أهله "تائباً مقبلاً" ونسمي من اغتصب أخته "مغترباً به".. فقط الكلمات التي تجيد صياغة حفل التهريج البديهي!... كما أذكرك أيضاً يوم ذهبنا إلى قرية في ضواحي مدينة "المدية" هاجمها المسلحون وقتلوا ثلاثين شخصا من أفرادها. ذهبت ككل مرة لأغطي واقعة الموت. كانت المجزرة أشبه برسم كاريكاتوري يومي.. داخل المجزرة فقط كان الوقت يبدو حقيقياً وملموساً بحيث لا يمكن رؤية حقيقته المجردة إلا في عيون الناس الذين حكوا لنا ما جرى في الليلة السابقة. عيونهم التي يمتزج فيها الرعب والمرض والضغينة لكل شيء وعلى كل شيء بما في ذلك علينا نحن الصحافيين المتهمين بالجبن لأننا لا نقول الحقيقة! لأن الحقيقة لا تقول شيئاً! لأن لا شيء يعني أحداً! أتذكر ذلك الشيخ الذي وجدناه يبكي على عائلة لم يبق منها أحد.. جاء من مدينة

أخرى هارباً من الإرهابيين الذين لحقوا به إلى هناك كما قال لنا معتقداً أنه السبب في موت سكان القرية التي آوته. كان مجاهداً شارك في الحرب التحريرية وقاد كتيبة نحو الاستقلال.. قالها لنا بعينين مملوءتين بالدموع وبصوت كانت تخونه حشجة الكلمات.. قال أنه عجز عن الدفاع عن أهله. خانه بصره الضعيف وعمره السبعين. خانتة شجاعته وخانه خوفه. كان يبكي لأنه خاف من الموت في الوقت الذي مات فيه أهله جميعاً. سألتني: هل أنت صحفي؟ ولم أرد. شعرت بالخجل من صوته. صمتُ. فقال: أكتب أن الدولة التي تقتل شعبها لا تستحق أن توجد! قالها وانفجر بالبكاء.. كنت مذعوراً أمامه. رأيت زميلي المصور الذي كان شاحباً أمام الجثث المنكّلة بها.. مسح على شعره بتعب وقال بغضب:

- يلعن هذه البلاد بنت الحرام!

نظرت إليه ولم أعلّق. طلبت منه أن يلتقط الصور كي نغادر المكان بسرعة. كان الكلام بلا جدوى قبالة وطن يموت فيه أبناؤه ذبحاً! كانت الجثث مرمية على الأرض غارقة في الدم. كنا نبذل جهداً كي لا نمشي فوقها. رأيت أطفالاً صغاراً مذبحين، ونساء كانت لحظة الرعب الأخيرة قابضة على ملامحهن التي لم يبق منها سوى الجزع الأبدي.. كنت وسط مجزرة لأكتب عن تفاصيلها. لأحكي عنها في الصفحة الأولى من طبعة الغد. طبعة لن تستطيع أن تشعر بما شعر به هؤلاء، ولن تستطيع أن تصف رعبهم الأخير وركضهم في كل اتجاه محاولين الفرار. كانوا يصدّقون أن الحياة قابلة للعيش. كانوا يحلمون بالعيد القادم، ويصدّقون الوطن الذي "يبقى واقفاً" على الرغم من كل شيء! الوطن الذي تخلى عنهم إلى آخر لحظة. كان ينظر إليهم وهم يموتون تلك الميئة المرعبة. كان

الوطن يغني أغاني الراي " الشهيرة " ويرقص على جثث القتلى ..
كان الوطن ينظم مهرجانات الأغنية الدولية .. كان الوطن يجامل
الأجانب على حساب أبناء البلد .. يدفع لهم بالعملة الصعبة كي
يغنون في " جزائر الشرف " ليعرض التلفزيون السهرات الفنية قائلاً
للعالم: أنظروا بأم أعينكم! أنظروا! الجزائر بخير وما تتناقله وسائل
الإعلام ليس أكثر من افتراء! " كان الناس يموتون يوماً بينما يتمثل
دور الرسميين في تكذيب خبر الموت بتنظيم مهرجانات غنائية من
كل صوب و " نهب " ! هو الوطن أيضاً الذي يتبرأ من موته. يختزلهم
في أرقام رمزية تصدر من الرسميين بالكاد، والحال أن الصحف
استغلت ذلك الانفلات لتبيع الأزمة في أعدادها اليومية. فالموت
تجارة مربحة. يهرب الناس من رعبهم بالقراءة، يستفيدون من عجز
الآخرين عن الحياة بالقراءة أيضاً. يطالعون الصحف اليومية
ويشاهدون صور القتلى بالعشرات يومياً، ليخاف الناس أكثر مما
خافوا الليلة السابقة .. ليهرب الجبناء إلى الخارج وليبقى الـ " شهداء "
في الداخل .. أولئك الذين يسقطون ضحية مجزرة تحدث فجأة ..
تحدث كما كل مرة بنفس التفاصيل والوجوه والصورة الأخيرة التي
يختارها مدير التحرير جيداً لتكون على صدر الصفحة الأولى بعنوان
عريض يبيع دم الموتى في المزاد العلني الإعلامي!

أعترف أن من خلال تجربتي الصحفية منذ التحقت بجريدة
" مدى الجزائر " ، وقعت على صورة وجدتها في ألوم صور الفجعة
ولم يعرفها أحد أي اهتمام .. كنت أتصفح مجموعة الصور التي
جمعتها طوال سنوات القتل العمدي والجريمة السياسية وإذ بي أعثر
عليها فجأة. صورة امرأة منهارة تصرخ. كانت الصورة قابلة لأن
تكون عادية لولا تلك الملامح التي شدتني إليها .. ملامح مثيرة

للنظر إليها ملياً والحزن قبالتها والبكاء عليها أيضاً.. بقيت أنظر إلى الصورة لساعات. كنت أبحث عن شيء يساعدني على بداية مقالتي. شيء قريب من الصورة، إن لم يكن الصورة نفسها.. اتصلت بالمصور الذي جاءني مسرعاً معتقداً أنني سأطلب منه الاستعداد لتصوير مجزرة جديدة! ناولته الصورة وسألته عنها. عن ظروف التقاطها.. فنظر إليها ملياً، ثم قال:

- هذه صورة وزعتها مؤسسة إعلامية رسمية!

نظرت إليه مستغرباً.. فقال كأنه يكشف لي عن أمر سري للغاية:

- هذه الصورة يقال إنها ملتقطة من مجزرة "بن طلحة". صورة

امرأة فقدت كل عائلتها!

سألته مستغرباً: - يقال؟؟

فرد بسرعة:

- أجل يقال. لقد كتبت إحدى الصحف قبل فترة موضوعاً عن

الصورة ذكرت فيه أن المرأة لا علاقة لها بمنطقة بن طلحة، وأنها

ممثلة فقط!

قبل أن أعلق أضاف زميلي بنفس الحماس:

- اسمع. صديقنا "كريمو" له موضوع كامل عن الصورة لما لا

نسأله!

كان "كريمو" مصوراً وصحفيّاً في وكالة الأنباء، واحداً من

المجانين الذين يحلمون بالهرب إلى الخارج. كان "كريمو" شخصاً

يكره الصحافة ومع ذلك يشتغل فيها. يقرب من الوطن ومع ذلك

يسكنه، لهذا كان التعامل معه لا يشوبه تصادماً مع فكره ولا مع

شخصه، فهو يعتبر الجميع أبناء كلب، بمن فيهم الموتى الذين

سَلَّموا رقابهم للقتلة!

كنت أشعر بفضول رهيب لمعرفة حكاية الصورة التي وأنا أتصفح تاريخها في الأرشيف الصحفي اكتشفت الجدل الذي أثارته.. صورة من مليون سؤال عن امرأة مفجوعة حد الموت. اتصلت بـ "كريمو" فردّ متظاهراً بالسعادة لسماع صوتي. سألني عن الأحوال... أجبت بكلمات سريعة وعادية، ثم حدثته باقتضاب عن الصورة. أشرت إلى رقمها التسلسلي في ألبوم الصور الصحفية الـ "رسمية" فعرفها. طلبت منه أن يرسل لي تفاصيلها فضحك.. لأول مرة أسمعه يضحك بتلك الطريقة قبل أن يقول:

- واش من تفاصيل يا صاحبي. هذه المرأة "خرطي"!
- كيف؟

- صورة ملفقة. ألم تقرأ ما كتب عنها؟ لقد التقطها مصور تابع لوكالة أنباء أجنبية. يبدو أن المرأة ممثلة طلب منها أن تلعب دورا في مجزرة!
- ممثلة؟

- إيه ممثلة. ! «une Actrice» ممثلة ولا أحد استطاع أن يعرف من أين جاءت ولا أين هي!

حدّثني لنصف ساعة عن مغامرة قام بها للكشف عن الجهة التي سرّبت الصورة إلى الصحف والمجلات ووسائل الإعلام في الداخل والخارج. قال إنها غير معرفة وأنه ذهب إلى منطقة بن طلحة وسأل السكان الذين أخبروه أنهم لا يعرفونها ولم يشاهدوها قبل تلك الصورة! قال إن الخبر الذي جاء مع الصورة يقول إنها تقيم في منطقة بن طلحة وأنها فقدت كل أبنائها في المجزرة، لكن سكان المنطقة الذين يعرفون بعضهم جيداً لم يعرفوها ويجهلون حتى أنها تاجرت بدمهم لتصبح "مادونا للبكاء الجزائري"! كنت أصغي إلى

"كريمو" فاقد الصوت أبتلع ريقى مدهوشاً.. قبل أن يكرر بصوته المتعب والضجر:

- هذه بلاد بنت كلب يا صاحبي!

كنت لسبب غامض مشدوداً لتلك الصورة التي جرّتني إلى فظاعة أكبر من شكلها. كان المصور لا يزال قبالي، ينظر إلي صامتاً.. أمسكت هاتفني واتصلت بصديق آخر يعمل في جريدة فرانكفونية.. سألته عن الصورة نفسها فقال تقريباً ما قاله "كريمو"، غير أن الصديق أضاف لي تفصيلة بدت لي مخيفة.. قال إن اسمها "مليكّة" وأنها تسكن في فرنسا وأن مؤسسة إعلامية أجنبية طلبت منها أن تؤدي دور الفجيعة لأجل صورة واحدة!

كنت مصدوماً. هل كان الوطن بحاجة إلى ممثلة تقوم بدور الفجيعة؟ ألم تكف جثث القتلى ووجوه النساء المذبوحات..؟ ألم تكف صور الجريمة اليومية لتغطي مساحات الصحف الدولية كي يستعان بامرأة تقوم بدور "ضحية" بدلاً عن الضحايا الحقيقيين؟ لماذا؟

كنت قد سألت السؤال نفسه للرشيد أسبوعاً قبل اغتياله. كان يومها يبدو متعباً. كان صوته ضجراً من الحياة. من اليوميات التي تحوّلت إلى فيلم رعب لا ينتهي.. شعرت بالتعاطف معه. لأول مرة أتكلم معه كما يتكلم شخص إلى صديقه دون فواصل ولا خطوط حمراء. قلت له أمازحه:

- سيبي الوطن قبره على أحلام من تبقى من الشرفاء!

نظر إلي وقال كمن يصترّح بشيء خطير:

- الموت لا يحتاج إلى شخصيات بعينها.. ونحن موتى

جاهزون!

- تقصد أن الشعب استعذب دور الضحية!

نظر إلي وسألني عن عملي.. سألني عن الخوف، هل أشعر به؟
وكنت لسبب ما أشعر فعلاً بالخوف من عينيه..

حين لم نجد ما نقوله عن أنفسنا تكلمنا عن الآخرين. حكى لي عن عمله. عن القتلى الذين يشاهدهم يومياً. عن الجثث التي يعثرون على بعضها مقطوعة الرأس فيضطرون إلى البحث عن الرأس لساعات. أحياناً يجدون رأساً قد لا يتناسب مع حجم الجثة ومع ذلك لا يجدون حلاً سوى في تركيبه على جثة أخرى. وإن لم يكن الشكل مقنعاً فكان الأمر حتمياً بحيث لا يمكنهم أن يأخذوا جثة بلا رأس، مثلما لا يمكن أخذ رأس بلا جثة. كنت أتخيل ارتباك الرجال الذين أمام الجثث الكثيرة مقطوعة الرؤوس لا يعرفون ماذا عليهم فعله بها؟ وكيف يجب التصرف في وقت قصير. قال لي أحد الضباط الذين أعفوا من الخدمة إثر تعرضهم لانهيار عصبي أنه كان يضطر إلى وضع الرؤوس مصفوفة في شاحنة عسكرية وتوضع الجثث في شاحنة أخرى لتنقل كلها إلى المستشفيات حيث يقوم الأطباء المختصون بخياطة الرؤوس إلى الجثث.. قال لي بمرارة أستطيع أن أفهم حدثها:

- كان الطبيب مضطراً إلى إعادة الرؤوس للجثث الكثيرة. لم يكن يعنيه أن يوصل رأساً إلى صاحب الجثة. كان يخطئ في كثير من المرات، فيلصق رأس شخص آخر على جثة مختلفة البنية، فيصير شكل الشخص الميت غريباً.. حتى نحن وإن لم نكن نعرف هوية الميت نلاحظ مباشرة غرابة شكله برأس نعي جيداً أنها لم تكن له! فلا يكتثر الطبيب لأن مهمته تنحصر في خياطة رأس إلى جثة! ثم ذات مرة، اكتشفنا أن الخطأ صار فادحاً حين تم إضافة رأس امرأة

إلى جثة رجل. رجل لم يعثر أحد على رأسه بينما المرأة لم يعثر أحد على جثتها، فاضطر الطبيب إلى خياطة رأس المرأة إلى جثة الرجل الذي لم يأت أحد للمطالبة بكليهما، فاضطرت إدارة المستشفى إلى دفنهما في مقبرة قريبة من المستشفى واضعين على القبر عبارة: جثة شخصين مختلفين لم يتم التعرف على رأس المرأة ولا على جثة الرجل!

أجل.. ألم يكن الوطن جثة نتلمسها في حالات الخوف والبرد والبكاء. ألم يكن الوطن مقبرة يتكئ الناس على أسوارها. من يقتل من؟ لم يكن مهماً معرفة من يقتل من منذ صارت الجريمة جماعية.. منذ صار القاتل يقتاد القطيع إلى منصة الخطابة ليشرح لهم أصول التفاوض على الميثاق الأغر، على القتل النمطي الذي يحول الجثة إلى شيء استثنائي وغير واضح المعالم.. بحيث لن يكون ثمة بكاء على الجثث أكثر من البكاء على من يظل حياً منتظراً دوره..

يا وطن!

* * *

كيف يمكن احتمال شساعة قلب مكتظ بالكراهية للآخر. ولا يهم من هو الآخر، القائد أم القواد.. لا يهم من الآخر الوطن أم اللا وطن! كثيرا ما سألت نفسي عن الشيء الوحيد القادر على غسل قلبي من ضغينة الوقت والمكان؟ ما الشيء الذي يمكنه إعادة رجل مثلي إلى حب الوطن كما لو أنه لم يرتكب ضدي شيئا، كما لو أنه لم يرتكب ضدنا شيئا. فأن تكون صحفياً هنا معناه أن تعرف أنك مشروع مقتول.. لم يكن القتل هنا يحتاج إلى سبب حقيقي، كان برنامجاً سياسياً كأى برنامج "تنموي" يسعى إلى جس نبض الناس قبل تنفيذه. بيد أن برنامج "القتل" لم يكن بدوره يحتاج إلى جس نبض الشارع، فقد كان مشروعاً قائماً بذاته، له موظفوه وله مدراؤه ومنفذوه أيضاً، بحيث كان كل شخص يأخذ أوامره من الشخص التالي، وهلم جرا! في زمن آخر، كنت أقول أن حب الوطن أشد وطأة من أي حب آخر، وأن الذين لا يحبون هم الفاشلون في الحب وفي الحياة معا. أجل. هم أولئك الذين لا يجدون الوقت للحب، ولا للنظر إلى وجه فقير، لأن طريقهم مختلف، ولأن ما يفعلونه وما يقولونه لا بد أن يكون مختلفاً تماماً. لهذا ينسون الموت، وينسون عزلة الموت، وينسون أن الجنة لا يمكن أن تكون لهم أيضاً. ولا يمكن لهم المساومة على دخولها. عادة، في غمرة الواقع السوداوي، في قمة الإحباط اليومي، حين كنت لا أجيد فعل أي شيء أتسكع في الشارع طويلاً، وأنظر وأسمع وأتنصت. أجل! كنت أتنصت على الناس كمن يغتنم فرصة أن يقولوا شيئاً ليشي بهم للحاكم/ السجنان. كنت أتنصت على غيظ الفقراء وتعبهم المتكرر

والمزمن. أنتصت على كلامهم الغاضب تارة والمنفعل تارة والحاقد في أحيان كثيرة. كنت هنا كي لا أكون هناك، فالعزاء أن تكون مع الذين يشعرون بالبرد في أعماقهم، من يظنون أنهم أكثر وحدة من غيرهم، فتأتي لتجلس معهم، ولتقاسمهم لحظة بسيطة وصادقة! من يشعر بالضغينة أكثر من شعب يفتقد إلى الحنان والدفء، شعب يعيش كيتيم تتقاذفه الأرجل، والملاجئ. أجل. من يحب هذا الوطن فعلا؟ ولكن الجميع يحبون الواجب. واجب الكلام، وواجب النقد وواجب الغضب وواجب الإحباط أيضاً أمام الخطأ غير القابل للإصلاح. هل ثمة شيء اسمه الإصلاح في واقع كهذا الواقع؟ ما الذي يمكن إصلاحه إذا كان صاحب البيت بهذا المستوى من العبيثية واللاجدوى؟ كنت أفكر دائماً أن الثورات لن تنجح في التغيير، فالثوار نتاج هذا الراهن أيضاً ومهما بلغت درجة إخلاصهم للقضية خارج الضوء، سرعان ما يتحولون إلى "الحرس الجديد" حين يضعون رجلهم على درجات السلم، وحين يصلون إلى الحكم يصيرون جاهزين لإدارة كل هذا الفساد القائم، فيتحولون من ثوار قدامى إلى "غيلان" جدد.. الرسلكة السياسية على أكتاف البسطاء الذين لا تتغير أدوارهم، يظلون هم الضحية، هم السجناء، هم المقموعين في مظاهرات عفوية، هم المتهمين بالخيانة حين يطالبون بالخبز والحرية. هم الذين يخاطبهم الحاكم بعبارة "أيها الشعب" كما لو أنه يخاطب سكان أمريكا الجنوبية!

أجل.. كنت لا أخفي رغبتني في الغضب أو الابتسامة حين أجلس أمام التلفزيون "صدقة" في وقت نشرة أخبار الثامنة لأصغي إلى الخطاب.. كنت أشعر بالدهشة والمسؤول يتكلم عن الشعب بعبارة "أيها الشعب الجزائري" **«Peuple Algérien!»** كما لو أنه يوجه

كلامه إلى شعب يسكن في كوكب زحل! اكتشفت كولونيلية هذا النوع من الخطاب السياسي، ربما لأنني أيام دراستي الجامعية كنت أجد متعة كبيرة وأنا أصغي إلى الأستاذ وهو يتكلم عن الحقبة الكولونيلية في الجزائر التي صنعت في النهاية الجنرال ديغول، مثلما دمرته أيضاً. ديغول وحده كان قادراً على مخاطبة الجزائريين بعبارة "أيها الشعب الجزائري" لأنه لم يكن منهم، ولأنهم لم يكونوا منه.. كانوا يحاربونه بعدد الشهداء الذين سقطوا، ولهذا ظل شارل ديغول يناجي الجزائريين بنفس العبارة "التاريخية": أيها الشعب الجزائري، إلى أن قال كلمته "التاريخية": لقد فهمتكم! تلك العبارة التي بعد أكثر من ثلاثين سنة من الاستقلال جاء الرئيس الفرنسي "جاك شيراك" ليقولها للجزائريين ثانية! كنت مصعوقاً أمام تلك الكلمة التي قبلت أمام عيون الجزائريين الذين كانوا يبحثون عن "فيزا" يغادرون بها الجزائر نحو المنافي الكثيرة. كان وصول شيراك يومها مشيراً للتساؤل.. ربما لأن المدينة تزينت على شرفه. فجأة قرر رئيس البلدية أن ينزل إلى الشارع ليقود حملة تزيين على شرف الضيف "التاريخي العزيز"، وصعقت حين صارت المدينة زرقاء تماماً. المدينة التي كانت تتباهى ببياضها "الحالك!" صارت زرقاء، على شرف الرئيس الفرنسي الذي لأجله، تم تعطيل الناس، وإخراج التلاميذ من مدارسهم ليصطفوا على أطراف الشوارع لاستقبال شيراك "العزيز". كانت تلك إهانة "حضارية" للجزائريين أنفسهم الذين أوقعوا في الفخ.. فخ استقبال رئيس يقول لهم بعد أكثر من ثلاثين سنة من الاستقلال قالها ديغول لأبائهم:

«Je vous ai compris!» لقد فهمتكم!

تمنيت أن أسأل شيراك يومها: ماذا فهم حقاً؟ وهل فهم

مستقبلوه ما فهمه هو قبالة مقبرة العالية التي كانت قريبة من المكان. قبالة الشهداء الذين كانوا يراقبون المشهد بصمت لا يخلو من فجيحة.. قبالة كل عائلات الشهداء الذين راقبوا أبناءهم وهم يقفون في طوابير السفارة الفرنسية لأجل حلم الحصول على فيزا تحررهم من كذبة الوطن؟

أعترف أنني كنت واحداً منهم أولئك الذين كانوا يحلمون بالخروج من هنا، والذهاب إلى أبعد مكان في الكرة الأرضية. وكنت أحياناً كي أرغب في الشعور بما يشعرون به أمشي بالقرب من تلك السفارات التي كانت مكتظة بالشباب الحالم بالهرب. كانت السفارة الفرنسية الأكثر اكتظاظاً بالطوابير، بينما الشرطي الفرنسي يرمق الجميع بوجه بارد مليء بالكراهية التاريخية، ليذكرهم أنهم يقفون داخل السيادة الفرنسية! كان يصرخ باستمرار:

«Vous êtes en territoire français,»

كانت السفارة، بمساحتها الخارجية تابعة للشرطي الفرنسي الذي لا يخفي قرفه من هؤلاء الجزائريين! بينما الطوابير تزداد اكتظاظاً. لأجل الفيزا يتقبل الجزائري الإهانة، من بواب السفارة وصولاً إلى الموظف الداخلي الذي لا يتردد في طرح السؤال الآخر أمام من يحالفه حظ الدخول إلى مكتب التأشيرات، يسأله بصوت لا يخلو من ضجر: لماذا تريد الذهاب إلى فرنسا؟ كأنه ليقول: فرنسا لا تريد أن تذهب إليها!

أجل! أمام أعين السلطات الجزائرية يهان الجزائريون يومياً باسم "سيادة الآخرين" على أرضنا. أمام أعين الجميع يقذف الشرطي الفرنسي جواز السفر الجزائري على وجه طالب الفيزا قائلًا له

بصوت لا يخلو من تجريح: لقد رفض طلبك. لن تسافر إلى فرنسا!
ودونما عبارة أخرى يطلب منه مغادرة المكتب!
كان هؤلاء الجزائريون يتقبلون الإهانات كي يزداد كرههم
لسلطتهم التي تركت الأجني يهينهم ها هنا.

فرنسا! La France!

كان الجميع يتكلم عن فرنسا. حتى أولئك الذين لا يجدون ما
يفعلونه يخترعون حكايات فرنسية، وأوهاماً فرنسية. حين يريد
أحدهم أن يتباهى أمام الآخر يقول له: قررت أخذ الأبناء في العطلة
إلى فرنسا! وحين تريد إحداهن أن تتباهى على جارتها تقول لها:
زوجي في فرنسا، ذهب ليغيّر جو! كأنها الحقيقة.. كأنه في فرنسا
يمكن للجزائري أن يغيّر جو. الجزائري الذي لا يمكنه أن يعيش في
فرنسا خارج جزائريته عادة، حتى وهو يحاول أن يقنع نفسه أنه غادر
وطنه كارهاً له، وضحينة عليه، يجد نفسه يمشي في الشوارع المكتظة
بالجزائريين. الجزائري الذي يقنع نفسه أنه "أنقذ جلده" من الوطن،
يجد نفسه في فرنسا يذهب إلى منطقة "باريس" المكتظة
بالجزائريين والمغاربة والأفارقة والمقهورين.. فكيف يمكن
للجزائري أن يغيّر جو في دولة منحتة تأشيرة الدخول إلى أراضيها
بعد أن بصقت في وجهه وأهانته أمام السفارة مليون مرة؟ لكن
الجزائري يحس دوماً أن دولته كانت السبابة إلى إهانته. دولته التي
بصقت في وجهه منذ ولادته، ورمته إلى ملجأ الأيتام الشعبي في
مجتمع تحوّل إلى "غاشي" من الطراز الفريد! الجزائري الذي قبل
أن يدخل إلى مقر البلدية ليستخرج شهادة الميلاد أو شهادة الإقامة
يضطر إلى التوسل لبواب البلدية ليسمح له بالدخول، وعليه أن يرفع
يديه لضابط أمن البلدية ليفتشه تفتيشاً مهيناً لا علاقة بسلامة الدولة

أو أمنها! وحين يقف أمام الموظف يضطر إلى تبرير الأسباب. قد يقول له الموظف بصوت عصبي وخال من الأدب: ليس لدينا استثمارات جاهزة فيما يخص شهادة الإقامة، عليك أن تأتي في وقت آخر! ليأتي في وقت آخر ولا يجد الموظف! الجزائري الذي يفقد كرامته قبالة نفسه. قبالة عمره المتسرب من ثقوب البطالة والوجع اليومي. الجزائري الذي حين يعجز عن الكلام يبدأ بالحلم.. يحلم بالهرب، وليس بالتغيير.. لأنه يدري أن التغيير كذبة لا تتجزأ عن كذبة الوطن! فما الوطن أمام هذا الشتات الرهيب؟

أليس الشتات وطن الفقراء والمعدومين؟ ألسنا نحن الذين سنخرج أخيراً ونطفئ النور خلفنا. الوطن الذي صدقت حرارته حين صدقت أنني قادر على تجاوز يتمي الأبدي. كنت أنا ذلك الشعبي البسيط الذي تربى في قرية باعت تفاصيله لمن يدفع أكثر. كنت ذلك اليتيم الذي كان يسميه الناس "لاكامورا" ليذكروه ألا حق له في الفرح، ولا في الأعياد التي كانت تجيء دونه. "لاكامورا" الذي وجد نفسه في جامعة غير منحازة للبسطاء. ولا للفقراء. اعتقدت أن البقاء كافياً ليغير من سلوك الطلبة الذين يجيئون إلى الجامعة بسياراتهم الرياضية الفخمة التي يقودونها بسرعة تحدياً لشرطي المرور الذي حين يوقفهم "عن واجب" يتناول السائق جواله ويتصل بأبيه القائد، الذي بدوره يتناول جواله ليتصل بمن لا يعترف بواجب إيقاف أبناء السلطة الاستثنائيين.. ليجد الشرطي نفسه محكوماً بتهمة "إهانة أبناء الأسياد"!

* * *

أندكر جيداً أنني كنت أجابه مخاوفني الحميمية خلف وجه أردته
حيادياً، غير مكترث لما يجري. حتى والنذير يأتيني شاحباً. كنت قد
تعوّدت على وجهه المكفهر وعلى ملامحه المتعبة. تعوّدت على
حواراته الغارقة في الموت، كمن يعد الجثث المصطفة على رصيف
الذاكرة. قال لي وهو يجلس قبالي:

- هذه الرسالة الرابعة التي تصلنا هذا الأسبوع.

ونظرت إليه ولم أنظر إلى الرسالة. كنت أعرف ما فيها. أتصور
شكل الحروف التي كتبت بها، واللون الأحمر الشبيه بلون الدم،
وقطعة القماش الأبيض وقطعة من الصابون أيضاً. تلك الرسالة
الصامتة التي تحمل كل الخوف الذي يحتوي الوطن بأكمله. كنت
من قبل أسمع عن تلك الرسائل التي وصلت لصحافيين في جرائد
أخرى، ولموظفين كانت تهمتهم جاهزة: أي تهمة "الانتماء" إلى
سلطة الطواغيت. كنت قبلاً أحاول أن أجد مبرراً للقتل. مبرراً واحداً
يجعل "ذلك الظل" يغتال أب عائلة بتهمة أنه موظف في مؤسسة
تابعة للدولة! سمعت عن اغتالات طالت سعاة البريد أيضاً. هؤلاء
الذين كانوا يحاربون المجاعة بجريهم خلف عناوين لم يكن أحد
يعلم أن قاتله يسكن فيها! وسمعت عن اغتيال حمّالين في الميناء
كانت الدولة تدفع لهم يوميات مقابل استغلالهم كحمير من البشر!
كيف يمكن اغتيال هؤلاء المعدومين من الحلم، والمقصيين من
الحياة أساساً؟ كيف يمكن لرصاصة أن تفقد قلبها إلى هذا الحد،
كي تصيب رجلاً عاش بائساً، فقيراً ووحيداً ومعزولاً أيضاً.. ذلك
البسيط الذي عاش منبوذاً لأنه لم يكن غنياً ولا كبيراً ولا مشهوراً..

كان رعية من الرعايا البائسين الذين يحتاج إليهم الأغنياء كي يتحسسوا أموالهم في وجودهم، ويحتاج إليهم السلطوي ليربح الانتخابات مسبقاً! هؤلاء الذين كانوا يموتون يومياً. برصاصة تعتقد أنها تحمي العقيدة من الرجس! لهذا أيضاً كان الخوف كبيراً. وشاسعاً كالبلاد. ولهذا بقيت أنظر إلى النذير كمن يبحث عن إجابة لسؤال طال طرحه طويلاً، سؤال استغرق العمر كله عبثاً! ما جدوى الحياة؟ ما الحياة أصلاً حين تجد من يوقفها بهذا الشكل اليومي والمتكرر بالأخطاء؟ كان النذير صامتاً، وكنت أنظر إليه كمن ينتظر كلاماً توقع أن يسمعه من قبل.. لكن الصمت طال كثيراً، وجدتني أقول أخيراً:

- هل أنت خائف؟

يا للسؤال الأغرب في الظرف الأغرب. خائف؟ أيمكن أن يكون الخوف شيئاً آخر غير هذا القرف اليومي والشعور الشاسع بالانتهاء. كان الانتهاء وطناً سكناه فعلاً، وحين اكتشفنا حدوده فينا لم نستوعب الحقيقة إلا بعد أن غادرنا المحطة الأخيرة، كمن يركب قطاراً تأخر عن الوصول ألف عام ماضية! هل كان خائفاً؟ كنت مرعوباً، وكان الصمت بيننا يكتب نهاية الأشياء التي جرتنا طويلاً إلى عربة العمر الحالك. كنت خائفاً جداً قبالة صمته، وسيجارته التي كان يمتصها بعصبية واضحة. كنت أتمنى أن أقول شيئاً مختلفاً وقتها، أن أقول ما يمكن لرجل أن يقوله لمشروع مقتول قبالي. لضحية كانت تستعد للموت أيضاً. مرة قبل أن يغادر المكتب قال لي: "اسمع، الذين اغتيلوا ليسوا أفضل منا، ولا نحن أكثر حظاً منهم!" تلك العبارة الجاهزة التي يقولها الجزائري قبالة جثة لم تبرد بعد. تلك الصيغة التي يكررها الجزائري ليعزّي نفسه أنه ليس أفضل

من المقتول ساعة القتل، وأن الموت حقّ علينا جميعاً! هل كان علي أن أجادله في أحقية الموت أيضاً؟ كنت أعني تماماً حقّي في الحياة أيضاً وأنا بعد في الثلاثين، والنذير قبّلتني يحلم أحياناً بالزواج والأسرة والزوجة الاستثنائية التي سيورثها الخوف عليه من مجرد ظل أسود سيظل يطارده أينما يذهب. ألم يكن النذير جزائرياً؟ ولهذا من حقه العيش سعيداً.. من حقه أن يركب السيارة ويكون له بيته الخاص وأسرته الخاصة وأحلامه الخاصة. هو الصحفي الذي بدأ يكتب احتجاجاته الصغيرة على الجدران أيام الإضرابات في الجامعة كما كان يحكي لي، كان يكتب أشياء لم تكن أحد يستوعبها في حينها.. أشياء كانت تبدو لهم مثيرة وأحياناً كبيرة. كأن يطالب بالخبز لشعب تعد إيراداته البترولية السنوية بالملايير. أيمن أن يجوع شعب مداخيله النفطية بالمليارات؟ أجل! يقول النذير.. في الجزائر أكثر من 15 مليون فقير، وأكثر من نصف الشعب يعيش على المحك. الموت والجوع والغربة والخوف والمجزرة. كلها أسماء لنفس الوطن أيضاً، لنفس المكان الذي نكتشف شعاراته في وسط الشوارع الكبيرة على شكل "الثورة من الشعب إلى الشعب"! أية ثورة يمكن توريثها لشعب جائع قبالة براميل البترول التي تباع باسمه، ومداخيل النفط التي تذهب إلى جيوب اللصوص والمرترقة؟

كان النذير قبّلتني. يمتص سيجارته بنهم. وينظر إلي، بصمت لا يخلو من عصبية. بعصبية لا تخلو من خوف. بخوف لا يخلو من قلق. بقلق لا يخلو من وجع. وكنت أتألم مكانه هو الذي كان يبدو لي هادئاً. ابتسم لي وقال فجأة: لي رغبة في زيارة الوالدة! قالها كمن يعترف لي بسر، كمن يدلي بشهادة مصيرية قبالة قلبه ومشاعره. ووجدتني بدل التعليق أبتلع لساني.. كان يقول لي أنه يطمئن عليهم

بطريقته، وأنه يسرب إليهم رسائله بطريقته، يتصل بأخته بطريقته. قال أنه حكى لهم عني، وأن والدته تمننت أكثر من مرة رؤيتي. وكان قلبي يدق كلما حكى لي ذلك. ربما لأنني في قرارة نفسي كنت مرتبكاً.. تساءلت بيني وبين نفسي: وتلك الصغيرة.. ماذا قالت عني؟ هل تمننت أن تراني؟ لم يكن لي حق سؤاله عنها، فلم يكن لجزائري أن يسأل جزائري آخر "كيف هي أختك؟" ! لكن حين قال إنه يرغب في الذهاب إلى بيته شعرت برغبة تتسلل إلى أطرافها كلها.. ليس لأنه قرر الذهاب، بل لأنني رغبت في مرافقته. ربما عن رغبة في الذهاب إلى هناك.. أنا الذي لم يذهب إلى أي مكان منذ اكتشف أن الأمكنة خادعة. كنت راغباً في رؤيتها.. شعرت بالارتباك أكثر وحين خرج النذير من المكتب وجدته أركض خلفه..

كنت أعني من البداية شعور النذير حين قرر الانقطاع عن أهله خوفاً عليهم من مهنته. حكى لي كيف أنه حين يغلبه الشوق، يتسلل إلى حيه القديم وينط عبر الأسطح العتيقة. من سطح إلى سطح كلص محترف، كي لا يراه قاتل يتربص به. وكان يدخل إلى بيته من السطح دوماً. يجلس إلى أمه قليلاً بينما يخرج أخوه الصغير ليراقب المكان، خوفاً من أن يداهمهم حراس الموت. ساعة من الكلام الذي يبدو أحياناً على عجل. ساعة من الشوق ومن الحلم الذي كان يبدو مبتوراً. ساعة من البكاء ومن الوعد أيضاً، ثم يغادر النذير أمه بالطريقة نفسها، نطاطاً من سطح إلى آخر. كل الذين كانت لهم أم تنتظرهم فعلوا الشيء نفسه. ضباط الشرطة الذين غادروا مساكنهم خوفاً من القتل فعلوا ذلك أيضاً.. كانوا يعودون خلسة إلى أمهات ينتظرنهم بشوق العمر الذي لا يعرف هل سيعيش للحظة أخرى؟ للوعد الآخر؟ كانوا ينطون عبر الأسطح للدخول إلى بيوتهم، لساعة

من الزمن، ويغادرون بالطريقة نفسها. الرشيد فعل ذلك كثيراً..
حكى لي عن مرات وقع فيها من السطح وأصيب في معصمه أو في
ذراعه ولكنه يتشبث بحق المحاولة ثانية، ليصل إلى أم يشاق إليها،
وإلى حضن يتوق إليه. ذلك الحضن الذي كان يعوّضه الوطن المفقود
أيضاً ويعوّضه الكرامة المجرّحة، ويعوّضه ألم السقوط والنهوض
والمشي باتجاه نفس المصير الذي هرب منه عبثاً! الموت قتلاً! لم
يكن المجرمون يتعبون أنفسهم بالنط عبر أسطح البيوت. كانوا
ينتظرون دوماً في المكان نفسه.. يعرفون دوماً أن ضحيتهم ستأتي
وأنهم لن يفعلوا أكثر من أداء دور جهزّ قبلاً، لإطلاق النار على من
يرونهم جزء من الطاغوت! حين غادرني النذير شعرت برغبة في
البكاء فجأة.. كنت أشعر في قرارة نفسي أن كلمته تلك لم تكن
لي، بل لنفسه.. وأنه يعي بحاسته "السابعة" أنه يحتاج إلى وجه أمه
للمرة الأخيرة، ولعله يدعو الله أن يرى أمه قبل أن تطاله الرصاصة
التي وعده المجرمون بها! أردت أن ألحق به. فجأة رفضت أن
يذهب من دوني. شعرت بحاجة إلى أن أكون معه في هذه اللحظة
بالذات.. كأن أكون معه في الخوف والموت أيضاً. كنت أعني جيداً
أن الرسائل التي تصله هي نفسها التي ستصلني في اليوم التالي من
موته. ولهذا رغبت في أن أجري بأقصى سرعة لألتحق به. وجدتني
أشده من ذراعه وأسأله:

- لماذا؟

نظر إلي مستغرباً السؤال. لكنه ابتسم أيضاً. كمن يعزّيني قبلاً
على شيء سيحدث لي أيضاً! سألني: لماذا ماذا؟ فابتسمت بدوري
بلا سبب. كنت أريد أن أضمه فجأة. ولعله أحس بذلك فربّت على
كتفي.. مشيت معه من دون أن يطلب مني شيئاً. وجدتني أخرج معه

إلى الشارع. لأول مرة أجدني أخرج إلى الشارع بهذا الهدوء الغريب. كنت أمشي معه وكان يتكلم أحياناً ويصمت أحياناً أخرى. يحكي لي عن شوارع كان يصف لي شعوره نحوها، وكنت أمشي معه بصمت، خوفاً من أن أثير ضجة تقطع إحساسي وأنا بجواره، أتأبط ذراع ذاكرته المليئة بالشقاوة والشغب والأسئلة. والكلام الذي كنت أصغي إليه بطريقة مختلفة... في قرارة نفسي كنت أشعر أنها لحظة استثنائية تلك التي كنت أمشي فيها مع رجل مثله، وأن الرصاصة التي خشيناها طويلاً قد تصيبنا معاً. وأنا قد نموت معاً أيضاً. كنت لسبب غامض لا أنظر خلفي كما تعودت أن أفعل حين أمشي في الشارع. لسبب غامض لم أكن أشعر بشيء سوى نشوة المشي هكذا عارياً كالفقراء، وبسيطاً كالأنبياء. وحقيقياً حد اللمس، وكان النذير يبدو لي هادئاً، كمن تحرّر من عبء ثقيل. كان يتكلم عن المدينة والناس. عن الحياة التي فجأة لم تعد مهمة، ولا ضرورية، ولا بائسة أيضاً، صارت عادية، عادية فقط... صارت كشيء نعيشه فقط، نعيشه بتناقضاته من دون أن نسأل عن اللحظة التالية التي قد تكون الأخيرة.. مشينا معاً هكذا.. بسيطين وعاديين، قريبين من بعض.. صادقين.. مشينا كما يمشي صديقان حميمان.. أخوان يكتشفان فجأة أنهما يحبان المشي معاً، في شارع يكتظ بالناس، والخوف والضحايا القادمين. ثم قال لي كمن يواصل حواراً بدأناه من قبل:

- ستكون مفاجأة رائعة أن تأتي معي. والدتي تسألني عنك دائماً. اعرف أنها ستفرح لرؤيتك..

لكم لفتني هذه الجملة وأنا أمشي صامتاً معه. وأنا أدخل إلى ذلك الحي الشعبي المكتظ بالناس والباعة المتجولين والعيون

المتربصة.. العيون التي تظل تراقب الداخلين والخارجين وتتبع خطواتهم.. كنت أمشي أمام النذير وأنا أعني بحاستي "السابعة" أن دخولنا لن يكون عادياً وأن الجميع سيعرف بعد ساعة أن النذير مدير جريدة "مدى الجزائر" جاء لزيارة أمه! لم يكن النذير مضطراً إلى النط فوق السطح هذه المرة، لأول مرة شعر أن عليه الدخول إلى بيته من الباب وفي ضوء النهار، ولهذا شعرت أنني أقاسمه قراراً خطيراً، ولحظة حميمية ستبقى عالقة في ذاكرتي ما حييت. ألم يكن عمري وقتها مسجداً في اللحظة نفسها؟ أنا الذي عاش حياته معتقداً أنه حقق شيئاً لضميره، ولو من باب الكتابة عن القيم وشرف النضال والموت وقوفاً. كنت أحاول أن أقنع نفسي أن الخوف والكتابة لا يلتقيان، تماماً كما لا يلتقي الحب والضعيفة.. كما لا يلتقي المجرم والشهيد.. شعرت بارتباك غريب وأنا أقف أمامه منتظراً مثله أن يفتح الباب. لا أدري كيف صعدنا السلم ركضاً أم مشياً أم زحفاً.. كان قلبي يخفق بقوة، ولعلي كنت أتلفت حولي فجأة، ربما منتظراً أن أرى شخصاً يطلق النار باتجاهنا. كنت دوماً أتساءل عن نوع الموت اغتيلاً.. لطالما كتبت عن هذا النوع من الموت. كتبت عن أناس اغتيلوا. وصفت موتهم، وصفت لحظاتهم الأخيرة كأنني عشتها بدلاً عنهم، ولكن... كان قلبي يدق بقوة. تحسست ذراعي بشكل لا إرادي.. نظر النذير نحوي وابتسم.. ثم ربت على كتفي. وحين فتح الباب وجدتهني أدخل بسرعة كمن يتخلص من عقدة الوقوف خارجاً! دخلنا.. دخلت. أنا اليتيم الذي عاد إلى حضن غادره طويلاً. لكم أبهرني دخولي. أبهرني أنني جئت، ليلفني ذلك الشيء الذي كان يقرصني من فوادي قائلاً لي: تأخرت كثيراً! دخلت.. كنت أتأمل شكل الحب الأسري في وطن فقد قلبه. بقيت بعيداً قليلاً وأنا أنظر

إلى تلك الوالدة التي ركضت نحو ابنها لتعانقه باكية. لتضمه إلى صدرها باكية. لتتكلم معه باكية. رأيت الدموع في عيني النذير. حاول أن يداريها فلم ينجح، ولأول مرة رأيت يبكي بين أحضان أمه. هل يمكن لشخص أن يبكي بكرامة في حضن آخر غير حضن أم منتظرة ومتلهفة؟ تلك الدموع التي كانت تصنع الرجال ولا تسيء إليهم.. تلك الدموع التي تمنيت أن أذرفها بدوري في حضن أم حقيقية.. شعرت بشيء يقرص قلبي، وأنا أقف هكذا متأملاً وخجولاً من وقفتي التي بدت طويلة.. ثم.. التفتت نحوي، تلك الأم التي ظلت فاتحة ذراعها لي، وبدون انتظار وجدنتي أعانقتها.

- كم أنا مسرورة لحضورك يا بني. منذ حكى لي النذير أنه وجدك وأنا أتمنى رؤيتك.

قالتها وهي تضميني. لم أقل شيئاً مهماً، كنت سعيداً بحضنها، ويدها وهي تتلمس وجهي كما تتلمس أم وجه ابن يعود إليها بعد سنوات من الغياب.. كنت سعيداً وخجولاً ومرتبكاً أمام عيني النذير وابتهامته الساخرة والماكرة. تلك الابتسامة التي كانت تثير غضبي أحياناً، ولكنها صارت تثير بهجتي.. ثم رأيتها تقبل راکضة، تلك الصغيرة التي صارت امرأة.. تلك التي ارتمت بين أحضان أخيها. لم تقل شيئاً، سوى دموع مشتركة، وعناق أفهم حرارته.. كنت واقفاً مرتبكاً أنظر إلى النذير وهو يبدو كطفل مرتبك بين أحضان أخته.. ثم حين هدأت العواطف، التفتت نحوي وابتهامتها وهي تصافحني. لم تتكلم.. ابتهامت فقط. خيل إلي أن ابتهامتها تشبه يداً توضع على ذراع مرتبكة. كانت تكفيني تلك الابتسامة لأشعر أن قلبي يدق بقوة قبالة تلك الجنية التي كانت طفلة وأصبحت امرأة. أصبح لها شعر طويل مسدل على كتفيها، ووجه هادئ وعينان

جميلتان وماكرتان.. جلست مرتبكاً على المقعد الذي أشار لي
النذير نحوه، وبقيت صامتاً.. كنت أتأمل المشهد ثانية.. وكنت أنظر
إليها... كمن يشعر لأول مرة أنه تأخر عن مواعده كثيراً. هالني
أنها ما زالت تنظر إليّ بتلك الابتسامة المغرورة. هالني أنها لم تتغير
كثيراً، لكنها صارت أجمل وأكثر قدرة على إرباكي بعينيها
وابتسامتها. هي الجنية التي خرجت لي من بحر الخوف والهلع
اليومي، والركض الجنوني نحو المسالك الصعبة. هل كنت لأخفي
فرحتي وأنا أدخل إلى البيت الذي كنت أعرف وجودك فيه؟ حين
قال النذير: هذا صديقنا العزيز، رأيت ابتسامتك تتسع أكثر.
ووجدتني أبتسم بدوري وأنا أتحسس يدي وذراعي. كنت ها هنا
أخيراً. كنت أعرف أنني سألتقيك! انتابني يومها شعور غريب بأنني
وقعت في الفخ.. كنت أنظر إليك بصمت أقرب إلى الصلاة،
ولسبب غامض شعرت أنك تنظرين إليّ بإلحاح وخجل لا يخلوان
من ارتباك في حضور أخيك الذي كان يتكلم عن أشياء بدت لي
عائلية جداً أو عامة جداً.. ثم وأنا أرتشف قهوتي جاءني صوتك
مخملياً وعميقاً ودافئاً..

- سرنا أنك بخير. النذير يتحدث عنك دائماً حين يتصل بنا.
يسرني أنك نجحت!

كان صوتها حريزاً حقاً. لم أفكر في الرد على الكلام بقدر ما
فكرت في التأكيد أنني لم أنجح. وأن ما يبدو لك نجاحاً هو فشل
المدينة في. كيف يمكن لامرأة مثلك أن تتكلم عن النجاح في
ظروف يأتي فيه شقيقها إلى بيته متسللاً كالسارق؟ كانت قبالي
وكنت أثرثر فجأة. أحكي عن أشياء بدا لي بعضها تافها. عن الدراسة
والصحافة. حكمت هي عن الجامعة والمستشفى الذي تعمل فيه! كنت

أصني ممتناً لها وجهها وصوتها وابتسامتها التي كانت تتقاسمها بيني وبين النذير.. كان النذير يبتسم، ويربت على كتفي ثانية كأنه يعزّيني. ولسبب غامض أيضاً وجددني أنظر إليها مكتفياً بهذا القدر من الدهشة.

هل كان عليّ أن أصدّق مسيرتي إلى جانب النذير منذ تحولنا من شخصين إلى صديقين؟ لم أكن بحاجة لإثبات وفائي أو ولائي له، كان مكتفياً بأن أمشي معه، وأجادله أحياناً وأدهشه في أحيان أخرى. فيبتسم لي، ثم يربت على كتفي.. كنت أتقبله كما هو، بمزاجه وثورته المفاجئة، وغضبه السريع وطيبة قلبه الأكيدة.. بابتسامته المستفزة أحياناً وصوته الذي يوحى لي أحياناً أنه يعرف أكثر مني، وأنني لست أكثر من صحفي يمارس عقده اليومية على الورق! الحب الذي جعلني أكتشف خارطة نفسي قبالتك، أنت التي قابلتها أولاً في القرية وقابلتها ثانياً في بيته. أنت بالذات التي بدت لي كجنبة الوادي.. هل تذكرين جنبة الوادي، تلك التي كانت تخيفك سيرتها فتمسكينني من يدي، وتمسكينني من ذراعي متشبثة بي. الجنبة التي كانت تحمل وجهك وصوتك وابتسامتك المغرورة؟

- قد لا أعود إلى هنا مرة أخرى..

قالها النذير وتناول سيجارة ظل يدخلها طوال الطريق ونحن نغادر البيت نحو مخبئنا.. ولم أعلق بشيء.. كنت أفكر في الواقع الممتد على جراحنا اليومية.. نظرت إلى شكل الحارة التي بدت لي بائسة جداً.. إلى وجوه الناس المغلفة بالحزن والفجيرة والخوف.. حتى أولئك الذين كانوا يبدون أسعد من الآخرين كانوا يضحكون على مأساتهم الشخصية في المقاهي المكتظة بالكلام اليومي، والهموم اليومية، والوجوه التي قد تغيب في اليوم التالي بسبب

الاغتيال.. كانوا يضحكون على فجيعتهم وعلى فقرهم وهمومهم بالنكت التي يخترعونها، ناسيين أن "الغيلان" يضحون على النكت وعليهم معاً! كنت أتساءل طوال الطريق عن هدف القتل في شارع بائس كهذا الشارع؟ حكى لي النذير عما سمعه من الناس هنا.. الناس الذين كانوا يتناوبون على حراسة أنفسهم وأملاكهم ليلاً.. حراسة بيوتهم وأهاليهم.. يجتمعون على أسطح البيوت وفي مداخل الأحياء ومخارجها. يجتمعون فرادى وجماعات مسلحين بكل ما تقع عليه أيديهم من حديد وسواطير وعصيات خشبية أو أي شيء آخر.. كان الناس يصنعون الأسلحة التي يدافعون بها عن أنفسهم وعن أهاليهم.. تحولت الحدادة إلى مصنع لصنع الأسلحة اليدوية كالسيوف والخناجر التي لا يعرفون استعمالها. بينما تحمل النساء مهارز أو أي شيء يقرعن عليه بقوة لتنبيه الأخريات وهكذا يتحول الحي كله إلى قرع ودق متوازي الصوت، فيعرف الجميع أن الإرهابيين مقبلون وأن الدفاع عن النفس حتمية لا مفر منها كي لا يتحول الحي إلى خبر مجزرة في جريدة الغدا! كنت أصغي إليه وأفكر في كل الكلام الذي سمعته عن المجزرة.. عن الوطن الذي لا يحمي أبناءه، وعن الدولة الغائبة في حضور الموت والعنف معاً.. تماماً كما قال لي ذلك الشيخ العجوز باكياً أمام جثث أبنائه وأحفاده، قال يداري دموعه عني: وينها الدولة؟ وين كانت الدولة لما ارتكب هؤلاء هذه الجريمة؟ ظل يردد هذه الكلمات بنفس الغضب والضعينة القديمة/ الجديدة قبل أن ينفجر باكياً. أين هي الدولة؟ الدولة التي تكذب أخبار المجازر في كل مكان. تناشد المستثمرين كي لا يصدقوا أكاذيب الشعب البائس الذي يموت يومياً، وكي لا يصدقوا الصور التي تبثها وسائل الإعلام الدولية عن

المجزرة الجزائرية في زمن العار اليومي. كانت الدولة تتهم الإعلام بأنه يسوق للعنف، وأن المجازر أكاذيب تلفقها المعارضة لهز صورة "الدولة" في المجتمع الدولي! بينما الناس يموتون كل يوم اغتيالاً. لكن النذير لم يكن مخطئاً، هو الذي توقع موته، لهذا قرر ألا يختفي عن الأنظار. لم ينتظر الليل ليخرج إلى الشارع.. اكتشف أمام عدد القتلى اليوميين والموجودين أن الحياة لم تعد مهمة.. كنت أحاول أن أزواج خوفي الشخصي على أساس مزاجه هو ورغبته في تحديّ الخوف بطريقته.. هو الذي يزور أمه متخفياً أحياناً.. قال لي مرة وهو يبتسم: لقد طلبت مني والدني عدم الحضور إلى البيت.. قالها وابتسم بطريقة جعلتني أبتسم بدوري.. لم أكن أذهب معه، لأنه لم يكن يطلب مني ذلك.. ولكن.. حين وجدته أسأله عن والدته أصرّ كي أرافقه.. ورافقه..

لأول مرة أجدني أجهز نفسي للذهاب إلى بيت صار يعينيني الذهاب إليه. شعرت أن إصراري على التأنق سوف يثير غضب النذير، ولكنه كان يبتسم بسخرية لا تخلو من عزاء.. سألني فجأة: هل يمكن ارتداء ربطة عنق على شرف الرصاصة المنتظرة؟ وضحكت بدلاً عنه. كنت أعدّل من ربطة عنقي، وأنظر إلى شكلي في عينيهِ الساخرتين.. كنت لسبب غامض أجهّز نفسي، ليس لمرافقته إلى بيته، بل للذهاب إليها.. كان يكفي أن آتي إلى هنا، وأجلس وأحكي وأسمع.. أحياناً حين نصل إلى الشارع يهرع نحوه بعض الناس الذين يعرفهم. يصافحونه بحرارة. ويسألونه عن أحواله بصدق.. وكان النذير يرد بسعادة مدهشة. بعضهم يطلب منه أن يكتب عن واقع الحي والناس. فيبتسم ولا يرد. بعضهم يعطيه رسائل لنشرها في الجريدة. رسائل مليئة بالمشاكل والشكاوي. أذكر ذات

مرة قابلنا شيخاً طاعناً في السن عانق النذير طويلاً... كنت واقفاً
أصغي إلى الشيخ وهو يحكي له عن حفيده الذي هرب نحو إسبانيا.
كنت أعني أن عبارة "هرب" تعني أنه ذهب بلا أوراق ولا هوية
حقيقية.. استطاع أن يحجز تذكرة نحو إسبانيا لعشرة أيام لم يرجع
بعدها. ظل يرسل إلى أمه قائلاً أنه لن يعود، وأنه وجد عملاً في
مطعم وأن صاحب المطعم يستغل وجوده غير الشرعي ليستعبده عشر
ساعات في اليوم... قال لأمه في الهاتف أنه يغسل أواني المطعم
ويمسح وينظف المكان ويفعل كل شيء مقابل أن يتركه صاحب
العمل ينام ويأكل.. وأنه أحياناً يعطيه راتباً مهيناً لا يجزئ مجرد
الجدال حوله خوفاً من أن يشكوه إلى الشرطة التي سترسله في أول
باخرة عائدة إلى الجزائر.. الخوف من الرجوع جعله يبقى.. جعله
يقبل أن يكون عبداً في وطن لا يشعر فيه بالإهانة تماماً لأنه ليس
وطنه في النهاية، ولأن وطنه الأم، وطنه الحقيقي أهانه من قبل!
كان النذير يصغي إلى ذلك الشيخ دون أن يقاطعه.. وحين دخلنا
البيت قال لي بصوت بدا لي حزينا: "مليون جزائري هربوا من
البلاد".. قالها كأنه يقنع نفسه بشكل غير مباشر أنه يناضل في
الداخل لأجل هؤلاء جميعاً.. لأجل أن يعودوا ذات يوم إلى وطن
سيعرف كيف يحميهم، وكيف يدافع عن كرامتهم.. وطن لا
يشجعهم على البقاء في الخارج، وعلى قطع كل أوراق الرجوع إليه
ولا حتى في التواييت!

* * *

«De l'amour à la mort il n'y avait qu'un pas, et l'amour l'a franchi qui peut dire pourquoi?

Qui peut dire comment il a mis une croix, sur nos rêves d'amant d'écrtant l'amour hors la loi!»

(من الحب إلى الموت خطوة واحدة قطعها الحب! من يقول لماذا؟ من يقول كيف وضع حداً لأحلامنا العاشقة جاعلاً الحب خارجاً عن القانون!)

كنت أصغي إلى هذه الأغنية وأنا أنظر إلى الناس من زجاج الكافتيريا. قبالي يبدو الوطن هلامياً.. والناس يركضون في كل اتجاه، بينما الأمطار يأكل الفضاء في صخب مثير.. للمطر وجه الأمنيات المستحيلة.. له صوت العشق في لحظة الصمت.. للمطر طقوس الفؤاد حين ينز قبالة وحدته وعزلته الأبدية.. قبالة المطر يمكنني أن أصمت، وأتكلم في الوقت نفسه.. قبالة المطر يمكنني البكاء فجأة، أو الضحك بهستيريا من دون أن أضطر إلى تبرير جنون اللحظة التي تركبني.. في مكان كهذا، وأمام وحدتي القابعة على الكرسي بجواري، وسيجارة أدخنها بنهم، يمكنني تأمل الأشياء بابتسامة لا تخلو من سخرية ومرارة.. كأن أضحك على جزارة الوقت كله.. كأن أبكي على هباء الكون كله.. من قبل، كنت أظن أن القلب هو الخاسر الوحيد في الحكاية.. لأكتشف أن الخاسر الأكبر هو الكون الذي يصير ضيقاً وتافهاً وصغيراً.. لم يعد للكون متسعاً لأجل أن نحمل ما تبقى من الكلمات، ولم تعد اللغة قادرة على استيعاب ما نريد قوله.. كل شيء جاهز للنهاية.. حتى ما يولد الآن يولد ميتاً.. الأمل والفرح الوهمي والوطن الذي يموت فينا

كثيراً كلما ظننا أننا ننقذه إلى غد آخر.. من قبل كنت آتي إلى هذا المكان مع النذير الذي كان يرافقني عن حب، ربما ليجلس قبالة الواجهة الزجاجية التي تسمح له تأمل الشارع والناس بصمت يشبه الصلاة.. لم يكن يستمع كثيراً إلى ما أقوله.. كان ينظر إلى الخارج بصمت وبابتسامة أقرب إلى الحزن.. كان يدخن وأحياناً يكتب أشياء لم يكن لي حق الاطلاع عليها! كان النذير يستهويني.. صديقاً ومديراً أيضاً. ربما لأنه في سنة واحدة ارتفع توزيع الجريدة بشكل ملفت، برغم كل الضغوطات التي كنا نواجهها من الجميع.. لكن تزايد عدد القراء أعطى للجريدة سبباً للبقاء.. كنا نعي من البداية أن الجريدة موجهة إلى الشعب.. الشعب الذي فقد أمنه وحرية ولم يفقد رغبة القراءة ولو في شكل جريدة كان يشتريها يومياً.. كل الجرائد التي انتشرت في تلك الفترة تاجرت في الأزمة مثلما تاجرت في جرح البلاد، ولهذا كان البقاء مهما بالنسبة إلينا، لأننا كنا نريد أن نبقي، ولأن قناعة النذير كانت تقول إن التواجد لأجل هؤلاء هو المعركة التي تستحق أن ندخلها.. بعد سنة من الصدور، شعرنا أن أرباح الجريدة أعطت لنا حق الانتقال إلى مقر آخر أكثر "احتراماً"، ولعل حصولنا على مقر في مبنى دار الصحافة كان بالنسبة للنذير ضرورة تشبه النصر.. بدا لي سعيداً وهو يعلن لي خبر الانتقال إلى المقر الجديد.. قال إن المكاتب الجديدة ستكون أفضل من حيث العطاء.. كان يشعر أنه حقق نصراً كبيراً.. كان سعيداً وهو ينظر إلينا نحن الثلاثة، أنا وزميلين صحفيين التحقا بنا منذ فترة.. كنت أبدو الذراع الأيمن للنذير الذي بدا متباهياً بسلطته عليّ/ علينا.. حتى حين يصطحبني معه كان يبدو متباهياً حد الغرور، وكنت لسبب غامض لا أشعر بالغضب من تباهيه أو من غروره، لم يكن يهينني

أن يقال عني ذراعه أو تابعه أو كلبه! ربما لأنني كنت أريد أن آتيك ولو في زيارة مفاجئة، في وقت المساء أو في الليل، متباطئاً ذراع شقيقك.. لم يكن يعنيني أن أكون صديقاً مخلصاً، أو كلباً وفياً، بقدر ما كان يعنيني أن ألتقيك.. كنت أريد أن أراك وأن أترك نفسي أمام عينيك تتأملانني كيفما شاءتا.. كنت مبهوراً بك وبأسئلتك لي/عني. كان يخيّل إليّ أنك تبحثين عن جواب للكثير من الأسئلة، ذهب تفكيري إلى أنك تبحثين عن آثار امرأة تسكنني، وكنت تشعرين بالخيبة كلما قلت لك: ليس عندي ما أقوله حقاً.

كنت في حالة غريبة من الهدوء وأنا أدخل إلى المكتب ذات يوم. كنت هادئاً وأنا أجلس وأتصفح الجريدة اليومية كمن لا همّ له. كمن يتوقع قراءة خبر سعيد في وطن يأكل أبناءه يومياً.. كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً حين رن الهاتف أمامي.. وحين رفعت السماعة شعرت بالخوف يتسلّل إلى مسامات جلدي ويسكن في النخاع حين جاءني الصوت يقول بلا مقدمات:

- لقد أطلقوا النار على النذير!

ولم أصدق سمعي.. بقيت مدهوشاً قبل أن أنطق أخيراً:

- ماذا؟

- أطلقوا النار على النذير، نام أمس عند والدته وحين همّ

بالمغادرة صباحاً أطلقوا النار عليه!

وجدتني أنظر إلى اللا شيء.. تمنيت أن أقول شيئاً، أي شيء مهما بدا تافهاً أو عادياً. لكن الصمت ابتلعني تماماً.. ودونما إضافات سمعت محدثي يتكلم عن المستشفى الذي نقل إليه النذير. وضعت السماعة وانطلقت مسرعاً.. هل ركضت نحو النذير أم نحوك. كان النذير صديقي.. صديقاً التقيت به على حافة الوجع

المشترك.. كان وجهاً ذكّرني بالوطن الذي يثير غضبنا وشوقنا وحنيننا.. وجوعنا الأزلي إليه.. كان النذير وطناً عشته مقتنعاً أنني على حق.. وأن الذين يدخلونه بقناعاتهم هم أولئك الذين ينتمون إليه بموجب جراحاتهم المشتركة ومآسيهم الواحدة وبموجب جوعهم الأزلي لنفس الثالث: الوطن/ الحرية/ الحب.. ما الوطن إن لم تكن الحرية سبباً في انبعائه، وما الحرية إن لم يكن الحب روحها الحقيقي.. لم أكن من النوع الذي يحلم بحرية الجسد.. لم تكن حرية الاستهتار تستهويني.. ولا حرية الواجهات المنمقة.. كانت حريتي بسيطة، لا تتعدى أحلامي الصغيرة. ومساحة من حب كنت أعي من البداية حقوقي فيه.. فالحب يعني كرامتي في وطن أمشيهِ عارياً من الادعاء والألقاب الجاهزة. يعني أن أكون محترماً برغم فقري وبساطة ملامحي.. ألا يضطر الآخر إلى إذلالني بحجة أنني شعبي، وفقير.. يعني أن أدخل إلى مقر البلدية لاستخراج شهادة ميلادي من دون أن يجبرني الموظف على الانتظار ساعة مجانية، وآلاً يطلب مني ما يثبت أنني أنا وليس شخصاً غريباً! الحب يعني كرامتي في الوطن وكرامة الوطن قبالي.. لكن.. ما الحب حقاً؟ ليس الحب هو مساحة اليتيم اليومي الذي نجتره بانتظام مميت؟ ليس الحب في عدد المنتحرين في البلاد، أولئك الذين يختارون ميّتهم بأنفسهم، بالطريقة التي يرونها الأنسب للموت، بدل انتظار قاتل سيأتي في الأزمة القادمة؟ كنت قد سمعت عن أولئك المنتحرين.. كما قمت بتحقيق صحفي عن بعضهم. ولم أستطع أن أتجرد من وجه ذلك الشاب الذي قرر أن يحرق نفسه أمام أهله وسكان قريته. كان في الثلاثين من العمر. خانه الوطن حين أحاله على البطالة المزمنة، وخانته أسرته التي رمته في التهميش العمدي

عقاباً له على اللا عمل. الذين وصلوا إلى سنه في القرية يعملون في شيء ما، ويتزوجون أيضاً.. بينما هو بقي عاطلاً عن العمل معتقداً أن شهادته الجامعية ستشفع له عند الآخرين كي لا يحاسبوه على أخطاء لم تكن له يد فيها. أخبرني صديق له أنه كان على علاقة حب مع ابنة عمه التي صدقت أن عليها أن تحلم في قرية نائية محمولة على قانون وعادات لا يعترفان بالحب.. ولهذا قرروا تزويجها بشخص آخر يكبرها سناً.. شخص له موارد التي سيفقد منها على الجميع. لهذا لم يكن لها أن تقول إن الحب أقوى من الموارد! شعر ذلك العاشق الثلاثيني أن الحب أهانه أيضاً، هو الذي صدق أن الحب وطن يكفي ليعيش فيه مرفوع الرأس، وفخوراً.. لكن الحب لم يكن حياً.. حين قرر أن ينهي حياته لم يفعل ذلك بعيداً عن الأعين. لم يكن الانتحار بالنسبة إليه جريمة قتل ضد نفسه، كان يريد أن يفعل ذلك أمام الجميع. أمام أهله الذين نبذوه قبلاً، وأمام عمه الذي عاقبه بحرمانه من حقه في الحب. وأمام الذين جاءوا ليتفرجوا على المشهد الأخير. كان غاضباً، ومع ذلك لم يفقد أعصابه.. كان هادئاً، وحزيناً.. أحد أصدقائه الذين استجوبتهم قال لي يصف لي لحظاته الأخيرة "كان وسيماً.. كان حزيناً ومكسوراً" .. كان كل هذا وهو يقرر سكب البنزين على نفسه وإشعال النار.. بدا الأمر مخيفاً أول الأمر، وحين زالت الصدمة حاولوا إطفاء النار التي انتشرت في جسده.. حين نقل إلى المستشفى كان قد مات! كنت الصحفي الوحيد الذي ذهب إلى تلك القرية لكتابة تحقيق عما حدث، شعرت بشيء يثير رغبتني في الوقوف على قبره. شعرت أن وقوفي على قبره لا يشبه العزاء له، بل لي.. أنا الذي عشت على حافة الحب، عارياً وفقيراً.. ومؤمناً أن

الحب واللعنة شيء واحد! الحب واللعنة .. فأينما يكون الحب تكون اللعنة .. كان الحب مربوطاً لفارس قضى حياته زاحفاً على ركبته، حين لم تعد الفروسية تعني شيئاً في زمن اللا شيء.

كنت أتذكر كل تلك الصور والأحداث التي اختلطت في ذاكرتي وأنا أركض نحو المستشفى. كانت المسافة تضطرنني إلى الذهاب في سيارة أجرة أو في سيارة الجريدة، لكنني قررت لسبب غامض أن أركض في الشارع .. ركضت كمن يتحرر من نفسه، ومن أتعابه الثقيلة. ركضت، ووجدتني وسط الناس الذين كان بعضهم يهرول والبعض يمشي برتابة لا تخلو من بلادة .. ماذا كان عليّ فعله غير الركض من مقر الجريدة إلى المستشفى؟ كنت مصدوماً، وحزيناً، وكان الحب يركض معي، خلفي .. بجانبني .. أو قبلي .. كان يلهث في صدري الذي شعرت أنه سينفجر من اللهاث .. فكرت فيك. في حالتك قبالة الفجيعة. فكرت في تلك الأم التي طالما انتظرت ابنها القرفصاء بصمت وصبر .. تلك التي حين يغادرها تقبل جبينه وتقول له "اتهلا في روحك يا وليدي" (اعتن بنفسك) .. في وطن كهذا الوطن تقول له ذلك. في واقع كهذا الواقع تقول له ذلك. اتهلا في روحك .. كأنه كان قادراً على الاعتناء بنفسه. كأن الاعتناء بالنفس يكفي للشعور بيتهم أقل .. ذلك النذير الذي توقع أنه سيموت قريباً. هو الذي بحاسته "السابعة" شعر أن ساعته قريبة، وأن الرصاصة التي تتربص به ليست بعيدة. كان يرفض أن يصاب في الصدر. كان يقول أن الجبناء لا يوجهون رصاصهم نحو الصدر، بل نحو الظهر، لهذا رفض أن يكون صدره سهلاً. كنت أتخيل شكل الموت الذي يتكلم عنه النذير. الموت وقوفاً؟ أليس ذلك شعاراً مبهراماً لموت هو نفسه الموت؟ من يموت واقفاً حقاً؟ حتى أولئك الذين يظنون أنهم

ماتوا وقوفاً دخلهم شك الوقوف! كذبة الوطن الواقف لم تعد تسري على أحد، لهذا لم يعد يسري على أحد أيضاً كذبة الموت وقوفاً.. كأن يقول أحدهم للآخر: مت واقفاً! تلك نصيحة مجانية يكررها الوطن الحالي ليقتل أبناءه، وليظل هو راکعاً للقتلة، على مدى آلاف الآلاف من المقتولين الذين اعتقدوا أنهم يموتون وقوفاً! كنت أركض بأقصى سرعتي.. وجدتني أصل إلى المستشفى مقطوع الأنفاس.. دخلت بأعجوبة بعد أن حاول أحد حراس الأمن منعي.. ادعيت أنني شقيق الضحية فتعاطف مع صوتي المتقطع، اللاهث.. تعاطف مع وجهي الشاحب ومع تلك الفجيرة التي كانت تنط من عيني.. ركضت في الممر الداخلي.. ورأيتها. كانت واقفة. شاحبة.. وكنت ألث كمن قضى العمر كله راکضاً.. تجنبت الأسئلة الجاهزة. لم أستطع أن أبدو جاهلاً بما جرى.. كنت أعرف كل ما جرى قبل أن يجري.. تجنبت أن أسأل: هل مات؟ هل مات تلك الميتة الواقفة التي كان يكتب عنها في افتتاحية الجريدة كل صباح؟ الميتة الواقفة التي تستهوي الشهداء ولا تستهوي الجناء الذين يضربون في الظهر ويهربون.. تجنبت أن أقول شيئاً قد يبدو غريباً.. ولهذا وجدتني واقفاً أمامها، مدهوشاً حد البكاء. كانت واقفة بلباسها الطبي، بينما والدتها جالسة على مقعد جاهز للبكاء.. وحين نطقت، وجدت الجميع يتكلم في وقت واحد. الناس الذين حضروا الجريمة، وأصدقاء النذير من الحي الذين كانوا يعرفون تلك النهاية المأساوية حتى قبل وقوعها. لم يكن هنالك شيء اسمه مجرم فردي.. في مثل هذا الاغتيال كانت الشرطة تضع الجريمة في خانة "الإرهاب". بعبارة مات برصاص إرهابي.. ذلك الرصاص التي قتل آلاف الأشخاص، في عرس الجريمة التي تكررت وستكرر فيكتب

الضابط المكلف بالتحقيق بالقلم الأحمر عبارته الشهيرة "شهيد الواجب الوطني" .. تماماً كما كتب في تقريره الخاص بالرشيد، وبآلاف الشباب الذين قتلوا بالطريقة نفسها ومن قبل المجرم نفسه: الإرهابي! إرهابي يتكرر، ويتكرر.. إرهابي من نفس الأم من آباء مختلفين! وجددني أنظر إلى تلك الوجوه الواقفة، والمنتظرة. فهمت أن النذير في غرفة العمليات وأن إصابته بليغة. كنت أبخلق فيها بعينين حزيتين. تمنيت لو كنت قادراً على سؤالها مباشرة من دون أن يتكلم أحد نيابة عنها. كنت أشعر أن الرصاصة التي أصابت النذير أخطأتني بشكل ما.. تقدمت من تلك الوالدة المفجوعة. كانت ترتعش حين وجددني أمسك بيدها بين يدي.. ودون أن أضيف شيئاً راحت تبكي. فكّرت بيني وبين نفسي طويلاً. هل يجوز البكاء على رجل مثله، هو الذي كان يرفض أن يبكي على شهيد استشهد لأجل ما يراه قضية مصيرية. قضية بقاء أو "لا بقاء" .. قضية أن تكون أو لا تكون.. كان يرفض البكاء على الشهداء الذين يغتالون، وتأتي الأخبار عن مقتلهم في كمين أو في جريمة جاهزة. أجل.. كان يعتبر الشهادة نضالاً في واقع المافيا اليومية والمنظمة. واقع لاكامورا في أقذر صورها. ألم يكن الوطن لاكامورا أخرى؟ في الماضي كان الشهداء يعزّون أنفسهم بحلم الجماعة. أجل.. كانوا يقولون لبعضهم: عانينا وتشتتنا، تنازلنا عن أحلامنا الشخصية لأجل أحلامنا الجماعية. اغتربنا وابتعدنا عن أهاليها، عشنا عزلة الروح، ووحدت الوجع داخل الحرب. عشنا جوعنا الأول والحميمي، ولكننا كنا معاً!

كانت عبارة "كنا معاً" تعني عزاء استثنائياً وعميقاً.. تعني أن الشهادة ليست نهاية، بل بداية لقناعات يحملها الشهيد إلى عالمه

الأخر، إلى حياته الأخرى.. لهذا كانوا شهداء أزيلين. اليوم، عزاء الكلمة لم تعد تؤدي الدور نفسه، وشهداء اليوم يشعرون أنهم كانوا لوحدهم، وأنهم عاشوا جوعهم وحزنهم وخوفهم لوحدهم. يشعرون أن موتهم أيضاً كان عزلة في وطن يضاعف صوت الموسيقى الماجنة كي يعلن للعالم أن الجزائر بخير قادرة على إحياء الحفلات والرقص على ما تبقى من جراحها الملوثة. فكيف نعزي شهيداً يموت اليوم؟ كيف يمكن أن نقف قبالة أمه؟ ماذا يمكن قوله لها، هي التي صدقت الوطن أيضاً، ودافعت عنه بإصرارها على البقاء وسط الخوف اليومي. لم ترحل بعيداً، ولم تنصب خيمتها في بلاد أخرى، لأنها آمنت أن الوطن هو الواجب الذي لا يمكن التعامل معه إلا بإصرار وقبول. ها هي منهارة على كرسي، تنتظر أن يأتي الخبر الذي توقعته في قرارة نفسها منذ بداية العنف، ومنذ صار القتل مناهضاً للحياة! أليس النذير شهيداً؟ هو الذي كان يكره الألقاب. كان يكره أن يقال عنه "كان" بصيغة الفعل الناقص الذي لا يرضي غروره.. هو الرجل الذي مشى أوجاع الوطن بطريقته الخاصة.. هو الذي قال إن الزواج لا يليق لمثله لأنه لا يستطيع أن يحلم بامرأة يتركها أرملة، وأطفال يخلفهم يتامى.

لست أدري كم مضى من الوقت وأنا أنتظر. ساعة؟ ساعتين؟ حين خرج الطبيب من غرفة العمليات، بدا كأنه سيعلم بياناً مصيرياً.. نظر إلى زميلته الطبية بابتسامة تشبه العزاء. ونظر إلى والدتها بنظرة أرادها مشفقة.. وأخذ زميلته على أفراد ليتكلم معها قليلاً. قبل أن يلتفت نحونا ويقول بصوت توقعته حياديته. قال إن المصاب في حالة حرجة، والساعات القادمة ستكون حرجة فعلاً. بتلك الطريقة التراجيدية التي كنت أعيبها على الأفلام العربية المبالغ

فيها .. بذلك الصوت الحيادي الذي يقول عكس ما في الكلمات من معنى .. وبذلك الوجه الذي تعود على الموت والأخبار التعيسة .. لهذا بدا غير مقنع في حزنه، حتى وهو يربت على كتف الوالدة المنهارة. كانت الأشياء تبدو لي هلامية، وغير واضحة، وقد صار الموت ها هنا. من قبل فقدت أشخاصاً أحببتهم. فقدت الذين كانت تجمعني بهم صلة الدم. فقدت وطناً لم أعشه كما كان يجب على إنسان مثلي أن يعيشه، وفقدت استقرارى وأمنى .. فقدت أحلامي وفقدت حاجتي إلى الحلم أصلاً. فقدت ابتسامتي، وشعوري بالأهمية إزاء نفسي. فقدت كرامتي. فقدت كبريائي. فقدت كل شيء تقريباً، وها الموت يعرّيني ثانية أمامك وأمام نفسي. اكتشفت فجأة أنني لست شيئاً أمامك. وأنت تنظرين إلي كأنك ترينني لأول مرة. و... هالني أن أرى في عينيك غربة أخرى .. هالني أن أشعر فجأة أنك لا تعرفينني .. تمنيت أن ترتمي في حضني، وأن أضمك بقوة وأبكي عنك وعني .. لكنك حين نظرت إلي، رأيت في عينيك إدانة جرححتني. تلك الإدانة التي ذكّرتني بإداناتي السابقة. ذكّرتني برفاقي القدامى الذين كنت أنزل معهم إلى الوادي وأعود دونهم، أعود أدرس وجهي في حضن عمتي لأصغي إلى حكاية الجنية وأنا مغمض عيني عميقاً كمن لا ذنب على عاتقه! لماذا لم يكن أنا من يموت؟ لماذا كانوا هم تحديداً، هم الذين كانوا جميلين، ورائعين في عيون أهاليهم، ويستحقون الحياة أكثر مني. كنت قبالتك .. واقفاً وحزيناً، وكانت عيناك تنظران إلي نظرة ممزوجة بالعتاب .. أكان عليّ أن أكون مكانه الآن. أكان عليّ أن أكون أنا من تصيبه تلك الرصاصة الموجهة إلى الظهر، باتجاه القلب. كأن الولاء للصدقة يبدأ بالتضحية بالحياة نفسها. كما الولاء للحب يبدأ بالتضحية بالحياة

نفسها..! هل كنت ستعرفين الفرق بين الموت والموت؟ هل كنت ستعرفين قيمة أن أظل حياً في الوقت الذي يموت فيه الناس؟ لم يكن في الأمر ما يدعو للتضحية حقاً. واجب الموت لم يكن يعنيني، وواجب البقاء على قيد الحياة سيان بالنسبة لي. ماذا كان عليّ فعله حقاً؟ أنا الذي عرف من البداية أنه سيظل حياً ليعيش ذاكرة الآخرين، ليحمل أحزانهم وأحلامهم الحميمة، وليبكي عليهم سراً، بينما الناس يدينون بقاءه حياً. فلا تدينني حياتي. لست خائناً للموت. أخوك يعرف ذلك جيداً. يعرف أنني "لاكامورا" الأحادي الفريد الذي قتل الأطفال في حكاية الوادي القديم، بحثاً عن جنية كانت تشبهك. لها عيناك، وصمتك وصوتك المخملي. لها شحوب وجهك حين تصابين بالصدمة، حين تبدو لك الحياة عبثية كما الآن. فلا تدينني بقائي حياً، لست خائناً. لست ميتاً وليست حياً. أنا ما أنا. ما كنته قبل ألف سنة، وما سأصير عليه بعد ألف سنة. أنا بنفس ملامحي وأحلامي المشوهة، وذاكرتي المعطوبة وقلبي المكتظ بالأسئلة قبالة كرسي ظل شاغراً لأجلك أنت. لأجل أن أقول لك فجأة "انتظرتك كثيراً" كمن يعاتبك على استهتارك بالوقت قبلاً، واستهتارك بالحب بعداً! الحب؟ هل يمكن لشخص مثلي أن يحب امرأة مثلك؟ امرأة تنظر إليه بغرور، ولا تعرف ما تركته في ذاكرته من تفاصيل وعقد ما يزال مدسوساً في جيب قلبه.. فلماذا تدينين حياتي؟ لماذا علي أن أموت كي يرضى الآخرون عني. كي لا يتطهروا مني. يا امرأة بقلب الوطن. بذاكرة الوطن. بقسوة الوطن. بضمير الوطن. بحيادية الوطن إزائي.

لم أشعر برغبة في مغادرة المكان.. كنت لسبب غامض أريد ألا أبقى في المستشفى الذي كان مكتظاً بزملاء المهنة المجتمعين

كالعادة لتوديع الميت قبل موته! ليكتبوا عنه. ليلقوا على "شجاعته" وليبرهنوا أنهم عرفوه أكثر مما عرف نفسه.. كنت أبدو حياً أمامهم. أمام ملامحهم العاكسة للشقاء. شعرت أن كل واحد منهم يتوقع نفسه في الحدث نفسه. في الصفحة التي سيكتب فيها عن زميله المقتول.. كل واحد منهم يعرف أن الرصاصة التي أصابت النذير تتربص به. في كل مكان.. من يقتل من؟ ألم تكن الصحافة تقتل الصحفي أيضاً؟ الصحافة التي تعني مقعداً في الصفحة الأولى لحظة الموت، ومقعداً في الصفحة الأخيرة لحظة الحياة! وجدتني أمامهم أظاھر بالصمت، كان حزني شفيفاً لي في عيونهم. لم أكن حزيناً على النذير بقدر ما كنت حزيناً على نفسي. كنت حاضراً فقط. أتجنب الرد على الأسئلة قدر الإمكان. أنظر إلى اللاشيء. غير معنيّ بشيء. وغير راغب في شيء.. كنت حاضراً وغائباً. أراقب ظهور الجنية من أي مكان. كنت أعرف بحاستي السابعة أنها هنا. في مكان ما. كنت أشعر أنني بحاجة إلى الكلام معها، أن أقول شيئاً مهما كان تافهاً أو عادياً..

أجل.. تمنيت أن أمسكك من يدك وأقول لك: اسمعي جيداً. كفّي عن النظر إليّ بهذا الشكل. لست أنا من أطلق النار على أخيك. ولست أنا من أشعل فتنة الموت في هذا الوطن البائس. لست أنا من حرّم الحب ولا أنا من أفتى للموت المجاني. أنا لاشيء. لست شيئاً. أنا لست أنا ولا أحد. فكفّي عن النظر إليّ كما لو كنت تتهمين بقائي جالساً هنا في الوقت الذي يحتضر فيه النذير!

هل كنت سأقدر على قول ذلك حقاً؟ هل كنت سأجد الشجاعة لقول شيء؟ هل كنت سأجد اللغة التي تعبّر لك عن خيبي وحزني وانكساري، عن كل هذا المدى المفتوح للضعيفة قبالي.. حين

وقفت من مكاني. حين أردت أن أغادر رأيتها تظهر أخيراً. متعبة وممتنة للحاضرين الذين جاءوا ليشدوا من أزرها. وجدتني فجأة أقف أمامها. وكما لو كنت أنهى حديثاً طويلاً وجدتني أقول:

- متى تعرفين أنني لست مسؤولاً عما يجري؟

و استغربت سؤالي، وجدتني أنظر حولي. شعرت بالتعب فجأة. تعب كبير ومزمن. تعب قديم وعميق.. وجدتني أمرر يدي على شعري. بدت لي حركتي هرمة. توقعت أن أرى أي شيء إلا تلك النظرات الحزينة، والدامعة.. تمنيت لو كانت لي الشجاعة لأضمك بقوة. ولأبكي عنك وعني عمراً مضى في الخوف والانكسار اليومي. هل كان عليّ أن أقول كما قال الأنبياء قبلي؟ لست نبيا. أنا مهزوم في صور الآخرين، في حياتهم العيشية، وفي تصديقهم الكاذب للعيد القادم إلى مدينة تدفن أبناءها يوميا. مدينة لا تشبع من القتل. لا تشبع من الدموع، ومن البكاء على جثث لا تعرف أسماء أصحابها.. فلماذا يتوجب عليّ تبرير ما أفكر به في واقع كهذا الواقع. لماذا عليّ أن أبرر وجودي ها هنا في هذا المستشفى منتظراً خبراً كنت أعرفه من قبل، وحقيقة كنت أدركها بحاستي "السابعة". لماذا عليّ أن أبرر حزني وفجيعتي أمامك. أنت التي تعطين لنفسك حق الحزن على أخ لم تعرفه أحسن مني. لم تسمعيه ولم تعيشي معه لحظات الخوف الحقيقية منه/ عليه/ أمامه... تعتقدين أن عليك أن تبدين أكثر وقاراً في حزنك، أنت التي قد تطلق عليك المدينة لقباً إضافياً، كأن تكوني أخت شهيد الواجب.. أليس هذا هو اللقب الذي يطلقه الوطن على الموتى. ويطلقون على أهلهم لقباً استثنائياً. أخ الشهيد أو أخته أو زوجته أو أمه... ليس للصديق مكاناً. ليس ثمة من يتذكر أن للشهداء أصدقاء قاسموهم ذاكرتهم

وأسرارهم الحميمة.. الوطن لا يذكر هؤلاء الأصدقاء الذين كانوا أشد حرصاً على حياة الشهيد من الشهيد نفسه! فكّرت أنه علي أن أغادر ولعلّي هممت بالمغادرة حين شعرت بيدها تحط على ذراعي.. وقبل أن أنظر إليها، عرفت أنني سأجهش بالبكاء، فبدل أن أعزّيك كنت تعزّيني.. هل قلت لك إنني يومها شعرت بشيء مبهر يدخل إلى روحي، يتسلل إلى مسامات جلدي. شعرت أن يدك حطت على جرح مزمن، وأنني لسبب غامض بدل أن أزداد حزناً على اللحظة/ الجرح، وجدّتي أبتسم في قرارة نفسي.. كنت أبكي دونما حزن إضافي، أو مبالغ فيه.. ليس على شيء سوى على نفسي، أنا الذي وجد نفسه قبالتك عارياً من الادعاء، وفقيراً كئيب لا يطلب من الناس أجراً على ما يفعله أو يقوله.. شعرت أن يدك كانت شرعيتي الصغيرة وأنني في تلك اللحظة عرفت أنك أنت التي لأجلها جئت إلى بيتكم. تلك اليد التي لأجلها كتبت، وحلمت في السر، وانتظرت لأجلها نهراً هربته بعيداً عن عيون القتل والمجرمين واللصوص المحترفين، وجنرالات الإهانة اليومية.. لأجل يدك كنت رجلاً استثنائياً في أحلامه الصغيرة، وفي مطالبه الشعبية التي بدأت بالخبز وانتهت إلى الحرية والكرامة.. ما الخبز إلا روح وجودك في قلبي؟ ما الحرية إلا صوتك حين يتكلم فجأة ليقول شيئاً لم أتوقعه تماماً.. وما الكرامة إلا لحظة أكون فيها معك دون أن أبرر ذلك لأحد.. أنت التي آتيها مريضاً، ومعطوباً ومكسوراً حد الانهيار.. آتيها صادقاً وعاشقاً وشاعراً.. كنت أعني جيداً أن تلك اليد التي توضع على ذراعي استثنائية. وأنني الوحيد القادر على السخرية من الوطن في حضورك، والوحيد الذي يقول لك إن الأوطان التي تقتل أبناءها لا تستحق أن تعيش!

أسبوعاً من بعد:

كان النذير ما يزال في حالة غيبوبة. استطاع الأطباء أن يخرجوا الرصاصتين من جسده. لم يفق. ظل في غيبوبة كمن يتشبث بالغياب بعد أن كان يتشبث بالحضور. زيارات الزملاء اليومية وبعض المسؤولين الذين أرادوا أن يلتقطوا صورهم في المستشفى، لأداء واجب زيارة شهيد جاهز! كنت أتفادى التواجد وقتها في المكان ذاته، أنسحب بعيداً وأصمت.. أتأمل المشهد المسرحي بصمت وقرف.. وكانت هي تستقبل الجميع، وتتكلم معهم بنفس المصافحة التي لا تختلف، ولا تفقد توازنها.. بنفس الوجه الذي يجعل الآخر يرتب على كتفها أحياناً قائلاً "تشجعي!" كأقسي ما تكون الشجاعة إهانة أخرى! كنت أتأملها وهي تمشي على طول الممر متعبة، بلباسها الطبي ونظراتها الحزينة، وصوت خطواتها المليء بالغرور والوقار الممزوج بالانكسار.. أتأملها وهي تصافح أي قادم يأتي ليسأل عن أخيها المصاب. ترد أحياناً على أسئلة لا رد لها.. ثم حين تلتقي نظراتنا، ترمقني بشيء من الدفء الممزوج بالتعالي.. كنت واقفاً دائماً في آخر الممر.. أنتظر.. تلك طريقي في الانتظار.. في انتظارك.. في انتظار صوتك الذي يقول لي بكثير من الحياء: "يجب أن ترتاح قليلاً، لن تنفع النذير في شيء لو مرضت أنت أيضاً.." ثم قبل أن أرد قالت بنفس الصوت: "ثم أن مكانك هناك، ليس من الواجب أن تبقى هنا وتترك الجريدة، النذير يرفض ذلك حتماً. الجريدة تحتاج إليك في غياب النذير، وعليك أن تكون موجوداً فيها!"

ابتلعت ريقى فجأة.. الجريدة؟ الواجب؟؟ ما الذي تقولينه يا امرأة مغرورة حتى في حزنها؟ أيمن أن نتكلم عن الواجب قبالة

خيانة كهذه الخيانة؟ هل يمكنني الدفاع عن الواجب حين لا يدافع الواجب عني؟ ما الواجب غير كذبة أخرى ألصقناها بالضمير؟ الواجب الذي لا يصنع وطناً لا يكون واجباً، وما نفعله لا يصنع وطناً، بل يؤرخ تفاصيل الجريمة المقترفة ضده. ما نفعله هو تأريخ الوطن بأسلوب صحفي يومي ننشره في الصفحة الأولى بعبارة "مجزرة جديدة في المكان الفلاني" بينما الناس الذين لا يجدون ما يفعلونه يتتقون الجريدة ليقرأوا تفاصيل الوطن الجديد الذي لا يترحم على أحد، ولا يبكي على أحد، ولا يتذكر أحد.. ما الواجب وأنت تقفين على سرير أخيك شبه الميت؟ أخوك الذي سيدفن حاملاً تلك الرصاصة التي عجز الأطباء من انتزاعها من صدره.. أخوك الذي سيأخذ إلى قبره إدانة ملموسة لوطن يقتل أبناءه بكل الطرق.. فما الواجب يا امرأة مغرورة ومكتئبة مسبقاً، وسريعة الغضب والجنون؟ لكم تمنيت أن تضعي يديك على كتفي بدل أن تتكلمي عن واجب لا تصدقينه. تمنيت أن تقولي لي: ما رأيك في قهوة نرتشفها في كافيتريا المستشفى، أمام أعين الجميع.. دون أن أضطر إلى الوقوف أمامك بصفتي صديق الغائب.. تمنيت أن أقول لك: لنمش قليلاً تحت المطر المنهمر في الخارج. لا حاجة لنا لمطرية لن تحمينا من الغرق. لا حاجة لنا لمعطف ولا لحذاء شتوي سميك. يمكنني المشي عارياً وشعبياً وفقيراً كما أنا، يمكنني الاستماع إلى لحظة يقولها المطر لأجلنا، دون أن يذكرني أحد أن واجب المطر يحتم علي الاختباء في جحر ما!

كانت تنظر إلي، وتنتظر ردي.. ثم كما أول مرة مدت يدها لي. همست بصوت بالكاد يسمع: لا تعرّض نفسك للخطر أرجوك.. ألا يكفي ما نحن فيه؟

و... صمتت.. لشد ما شعرت بالامتنان لعينيك وليدك.. شعرت أنك تعيدني لي وجهاً فقدته قبل أن أولد.. وجهاً كان لي وسرقه مني قطاع الطرق القدامى والجدد.. شعرت أنك تعيديني أكثر بساطة وحرارة.. كأن تقولي لي "أحبك" في عبارة "انهلا في روحك" .. شعرت أنني ارتبكت، ولعلّي ارتعشت أمامك أيضاً. نزعت يدك بسرعة كمن اكتشفت أنه لا يحق لك أن تتكلمي عن شيء غير الواجب! كنت ممتناً لك، سعيداً فجأة وأنا أنظر إلى عينيك.. وبدل أن أقول شيئاً يرضيك سألتك عن والدتك. كنت أعرف أنها مريضة هي الأخرى بعد أن ارتفع الضغط والسكري لديها.. تمنيت أن أزورها، لكنها أرسلت لي من يطلب مني ألا آتي إلى البيت. قالت إن الذين أطلقوا النار على النذير ما زالوا يتربصون أمام البيت. قد يطلقون النار على أي وجه يكرهونه! بقيت أتصل أحياناً، وأحياناً أسأل بخجل عن أحوالها متذكراً أنها ليست بخير .

ثم قبل أن تنسحب قالت:

- انهلا في روحك!

في زمن آخر كانت عبارة: "انهلا في روحك" تعني أناشيد كثيرة، وترانيم حميمة.. كانت تعني واجباً مختلفاً وجميلاً.. الآن صارت تعني أشياء لا قيمة لها، فما معنى أن تعتني بنفسك في وطن لا يعتني بنفسه أمامك.. في وطن لا يعتني بك؟ فهل شعرت بكل ما كان في قلبي لأجلك؟ وهل يسمى الواجب خيانة أن أشعر نحوك بشيء كبير في وقت كان فيه شقيقك في سرير الموت.. لم يكن الموت ليقف في مقاصدي نحوك. يا امرأة من واجب. يا واجباً لا يعرف كم أحبه لمجرد أنه يحمل وجهك ونظراتك ويدك.. يا وجهاً ألفتة، وتعودت على حرارته. ويا صوتاً يذكّرني أن الجريدة التي لا

أوجد فيها لا يمكنها الصدور! واجب.. واجب.. واجب.. فماذا عن اللا واجب؟ أليس ما يجري حولنا هو اللا واجب بعينه. إزاء الحياة وإزاء الفرح وإزاء البقاء؟ من ذا الذي يقنعني أن القتل علاج للأرواح المشردة؟ من ذا الذي يقنعني أن الله أمر بخيانة الجار واقتحام بيته وذبحه على مرأى من أسرته لمجرد أنه يعمل في مؤسسة يعتبرها القتلة تابعة للطواغيت. ما المجرم وما الطاغوت؟. أليسا شخصاً واحداً؟ أليسا فكرياً واحداً؟ كيف يمكنني أن أدافع عن ذلك الـ"منطق" الذي يعتبر الحب عاراً وفجوراً وقلة أدب!

أن أحبك لهي لعنة أخرى تصيبني.. أن أحبك لهو انتحار جميل أعني جيداً أنني أمارسه بكامل عقلي.. أن أحبك يعني أنني أتمرد على "منطق" الغيلان، وأتحرر من عقدة الـ"قداسة" التي لوثوها أمام عيني.. أن أحبك يعني أنني أولد ثانية بموجب قناعاتي أنا، وبموجب ما أحمله من رؤى لست بحاجة إلى شرعية مزيفة ولا إلى انقلاب عسكري دموي لأصّدقها ولأدافع عنها. أنا الذي عاش معطوباً عمراً بحاله. أنا الذي وجد الحب قابلاً للقتل.. قريباً من الجريمة. كل الجرائم التي مرت في حياتي كان الحب ثالثها. مع ذلك، لم أفقد حقوقي الصغيرة في أن أحب وأموت لأجل الحب. لأجل امرأة تشبهك، وتشبه ما لك عندي من كلام ومن آمنيات.. ليس مهماً أن تصيبني رصاصة، فقد آمنت من البداية ألا شيء يستحق أن أموت لأجله منذ فقدت الوطن وانتهيت منه إلى مقبرة كبيرة. وأن الواجب لم يكن ليعينني منذ تحول اللصوص إلى أسياد، ومنذ صار اسمي في قائمة المحكوم عليهم بالقتل. لم أقل يوماً أنني خارق، سوبرمان، كما يقول الحاكم لشعبه.. كما يقول الجنرال للحاكم.. لست "سوبرمانا"! أنا فقير كخبز حار ونظيف.. لست

خارقاً إلا ساعة الحب.. حين تضعين يدك على ذراعي. حين تطلبين مني أن أعنتي بنفسي وترتجيني لأبقى حياً. ألا يستحق هذا أن أوجد لأجله.. ألا يستحق هذا أن أكون سعيداً، حتى وأنا أفكر أن صديقي الوحيد سيموت قريباً، وأنني سأدفنه وأعود إليك كمجرم يوراري الثرى شاهداً وحيداً على ماضيه العبيث بكل ما فيه وما عليه..

تساءلت بيني وبين نفسي وأنا جالس أنتظر مرورك أمام الممر.. ماذا لو سألتني فجأة: هل وقعت في الحب من قبل؟ وفكرت في نوع الإجابة التي يمكنني قولها لك؟ ففكرت في الرد الذي أريده صادقاً وبسيطاً... تمنيت لو كان عندي رداً مختلفاً لمجرد رؤية ردة فعلك حين أقوله لك..: نعم وقعت في الحب، ولكن الحب لم يقع فيّ... لكنني سأبدو غيباً لو كذبت. لا أجد الكذب.. لا أعرف الكذب إلا على الورق حين أكتب على شرف الحاكم الذي يطلب مني مسؤول إعلامه أن تكون افتتاحيتي "لائقة" بإنجازاته ومعجزاته! أحياناً تصلنا رسائل على الفاكس من مسؤولي وزارة الإعلام "يناشدونا" فيها أن نكتب بموضوعية أكبر.. كانوا يهددون تحت السطور بالمادة الصارمة من قانون العقوبات التي تبيح لأي مسؤول أن يدخل أي صحفي إلى السجن إن هو "تطاول" على الأسياد.. هذا هو الذي أردت أن أكون مختلفاً عنه بالحب.. فأن أحبك يعني أن أظل أذافع عن نفسي كي لا أتورط في هذا الهباء اليومي، والفوضى المتكررة! ولو سألتني هل وقعت في الحب من قبل لقلت لك: يا سيدتي.. كل شيء يقتل الحب قبلك، كل شيء هلامي وغير حقيقي بعدك.. قبلك لم يكن للحب اسماً ولا يداً ولا وجهاً.. كان هلامياً كغول الحكايات القديمة.. كما الوطن الذي حين تستيقظين فجأة تكتشفين أنه غادرك بعيداً.. كما الكلام الذي

حين تقولينه تكتشفين تفاهته، ولا جدواه.. قبلك لم يكن ثمة شيء اسمه الحب.. يمكنني أن أقول لك إنني لسبب غامض أشعر بسعادة لأنك أول حب أعترف بجغرافيته في كياني، بشرعيته في حياتي وبحقه في تقرير مصيره في قلبي! ثم.. فكّرت مذعوراً.. وأنت هل أحببت من قبل؟ هل لمست يدك يداً عاشقة ترتعش تحت وطأة الحب؟ وهل.. ما جدوى الأسئلة يا قلباً لا مكان لشيء فيه غير ما يبدو راهناً.. الآن هو الآن.. لا يهمني ما جرى أمس.. أن يقتل الحاكم نفسه أو شعبه.. أن يقتل الشعب حاكمه أو نفسه! لا يعنيني من الحب إلا الحب..

اليوم العاشر:

زرتك ككل مرة أزوره.. لم يفق من غيبوبته قط. ولم أشعر بتأنيب الضمير وأنا أفكر أنني جئت لأزورك أنت.. كنت أنت الوجهة التي صرت أمشي نحوها، مهما كان المكان. أن التقيك في هذا المستشفى المكتظ بالمرضى والجرحى. برائحة المعاناة والرطوبة معاً. بصمت المكان الجاهز للبكاء.. لا يهم.. كنت أحب أن ألتقيك. ولعلي اكتشفت ألفة غريبة مع المكان، فصرت آتيك إليه.. أتظاهر بالجلوس في قاعة الانتظار القريبة من الممر الذي تعبرينه يومياً.. أجلس على المقعد الذي يقابل المشهد كله.. وأنتظر.. ككل مرة أراك. فيخفق قلبي ويلفني الصمت والارتباك كطفل يراقب أمه تقترب منه. كفقير يلمح ضوء العيد حقيقياً حد اللمس.. كنت قد سألت الممرضة التي تعودت سؤالها عن حالة النذير.. أجابت بوجه أرادته صادقاً أنه ما يزال في غيبوبة.. ثم ابتسمت بحزن أيضاً وهي تقول "ربي يعطيكم الصبر!"

يعطينا الصبر؟ كي نعيش في نفس هذا العفن اليومي؟ أتمنى لو

يقول الناس "ربي يعطينا التغيير" بدل أن يعطينا الصبر على واقع
قدر كهذا الواقع.. يعطينا وضعاً أفضل ووطناً أفضل وسلطة أفضل!
يعطينا كل شيء يجعلنا نعي أن صبرنا إزاء المآسي هو الذي يكرّسها
أماننا يوماً بعد يوم، عاماً بعد عام.. عمراً بعد عمراً وجددني أسأل
الممرضة عن الطيبة فقالت وهي تبتسم بنفس الفتور: أعتقد أنها
مشغولة اليوم.. لديها ضيف خاص.. قالتها ودست رأسها بين
الأوراق.. لم أضف شيئاً. دست يدي في جيبتي وجلست في قاعة
الانتظار المقابلة للممر.. لفت انتباهي بعض الزوار الذي يحملون
الورد لزيارة مريض.. ووجدتني أستغرب. ليس أمام الورد، بل أمام
الناس! هل أستطيع تفسير إحساسي بالذهول أمام شخص يأتي إلى
المستشفى حاملاً باقة من الورد؟ كنت أتساءل دوماً عن لغة الورد
التي تترجم حالة كهذه الحالة؟ هل يمكن الكلام بلغة الورد في
ساحة يتحاور فيها الجميع بالرصاص؟ مع ذلك... هالني أن أرى
الورد بين أيدي الناس.. ورد لم يكن يعنيه في شيء، وقد لا
يختارونه بأنفسهم. بل يتركون للبائع حرية اختياره وفق الثمن الذي
سيدفعونه.. فأن تختار الورد وفق ثمنه أهم من اختياره وفق لغته.
هذا ما تشير إليه تلك الباقات التي لا يتجاوز ثمنها أساساً 500
دينار جزائري.. مع ذلك، في ظروف لا يجد فيها الناس ثمن الخبز
يشترون وروداً يتركونها تذبل في مزهريّة المستشفى لتلقي بها منظفة
الغرفة في المزبلة! كنت جالساً أنظر إلى تلك المرأة التي تبدو لي
منهكة وهي تحاول وضع باقة الورد في حجرها. كمن يريد التخلص
من شيء لا يعرف كيف حمله معه إلى هنا!! جلست بجواري في
قاعة الانتظار منتظرة أن تسمح لها الممرضة بالدخول.. كنت أنظر
إلى تلك الباقة وأفكر في قيمتها حقاً؟ فقد كانت تبدو المرأة بسيطة

وفقيرة.. لعل استقرار نظراتي على الباقية جعلها تقول لي بشكل لا يخلو من خجل:

- أصبح المرء لا يعرف ماذا يحمل معه لزيارة مريض؟ الأكل ممنوع والطبيب رفض أن نحضر له شيئاً فيه سكر.. ولم أجد إلا الورد!

أجبتها بصوت أردته متعاطفاً:

- قد يكون الورد أفضل في هذه الحالة.. إنه يخفف من ديكور المرض والمستشفى!

ابتسمت.. ثم قالت بنفس الحركة التي تبدو لي مقتبسة من فيلم هندي!

- نظن ذلك حقاً؟ حين نحضر عرساً نحمل ورداً، وحين نزور مريضاً نحمل ورداً، وحين نزور ميتاً نترك إكليلاً على قبره. لا فرق بين الناس الذين نزورهم. كلهم يتشابهون من حيث فكرتنا أنه علينا أن نحمل شيئاً في يدنا كي لا يصدمهم شكلنا ونحن ندخل إليهم فارغي الأيدي!

تمنيت لو كان باستطاعتي أن أبتسم.. تمنيت لو كنت قادراً على الاعتراف أنها محقة، ولو في جزء من فكرتها.. لكنني بدل ذلك، وجدتني أسألها عن ثمن الباقية؟ وإن استغربت سؤالي إلا أنها أجابت بسرعة:

- 500 ديناراً! صدقني لا شيء اسمه باقية غالية وأخرى أقل قيمة طالما نهايتها في مزهية ستذبل فيها بعد يومين أو ثلاثة!

و قبل أن أرد جاءت الممرضة لتخبرها أن بإمكانها رؤية المريض! غادرتني بابتسامة أشعرتني بالخجل مني.. ففكرت أنني أقل "حكمة" من تلك المرأة التي تعرف مصير الورد وتحمله! كنت آتي

فارغ اليدين .. لا أحمل عقدة نقص إزاء يدي الفارغتين .. كنت آتي برغبة في الحضور، ولم أفكر أنني بحاجة إلى حمل شيء في يدي غير فراغها المهول .. وانكسارها التاريخي .. مع ذلك .. وجدتني لأول مرة أنظر إلى يدي وأتساءل: كيف رضيت بفراغها إلى هذا العمر؟ فكرت في ذلك الكلام العجيب الذي سمعته من تلك المرأة .. في تلك المقارنة الغريبة بين الورد والفرح والمرض والموت .. أليس الورد شاهداً عليها؟ فكرت أنني أقلّ حكمة لمجرد أنني فارغ اليدين! ولكنني سرعان ما فكرت أنني هنا لأجلك ولهذا لم يكن علي أن أحضر في يدي ما يبرر زيارتي .. كنت أجيء فارغ اليدين لأملأ رثتي بما يأتيني منك .. بما يجعلني أقلّ عرضة للخوف، والوحدة والعزلة .. كنت آتي إلى هنا لأثبت لنفسي أنني معك، وأن أحلامي الصغيرة ليست من فراغ، لأجلس قليلاً وأرتاح من تعب الأشياء وعشية الكون المحاصر بالقتلة. معك تكفيني نصف ساعة لأضيف إلى عمري مساحة تكفي لأعيش ألف عام أخرى .. معك، يكفي أن تجلسي قبالي وتضعي يدك على ذراعي وتلحي عليّ كي أعتني بنفسي، وألا أعرض صدري لرصاصهم ..! كان يرضيني أن تطلبي ذلك مني، لأجل ألا أموت ميتة يريدونها لي. منطق الورد الجاهز لم يكن منطقي .. كنت فارغ اليدين كما أنا، أمتلئ بك كما أنت. يا امرأة لا تقول شيئاً. كنت جالساً ومنتظراً وإذ بي أراها أخيراً .. خفق قلبي وشعرت أنني سأرتبك ككل مرة أراها فيها مقبلة نحوي .. جاءت وإذ بي أكتشف أنها لم تكن لوحدها .. كانت مع شخص شعرت بالجفاء نحوه. كان مبتسماً وكانت تتكلم معه بابتسامة فاجأتني. تساءلت كيف يمكنها أن تبتسم بتلك الطريقة في هذا الظرف تحديداً؟ حين اقتربت مني

توقفت ونظرت نحوي كأنها تذكرت أنني هنا! كأنها استغربت أن أكون هنا! فجأة اختفت ابتسامتها. شعرت بشيء يقبض قلبي.. تمنيت أن أقول شيئاً. ولكن.. نظرت إلى الرجل أمامها وقالت بصوت لا يخلو من رسمية:

- هذا هو زميل النذير في الجريدة و... صديقه أيضاً!

بدت لي الجملة مهينة جداً. تمنيت لو كانت لي القدرة على الاعتراض. تمنيت لو كنت قادراً على القول: لا يا سيدتي.. قد لا أكون شيئاً، ولكني جئت إلى هنا لأجلك.. لم يكن يهمني في الأمر لا الصداقة ولا الصحافة... هل يمكن أن أكون هكذا عادياً إذن.. شعرت بخيبة غريبة، ولعلها انتبهت إلى خييتي، إذ قالت بسرعة كمن يسارع إلى طعني ولو بعبارة عادية.. قالت وهي تنظر إلى عيني بعمق: دعني أقدم لك "هشام".... خطيبي!

لست أدري لماذا ترددت قليلاً قبل أن تقول "خطيبي" ولست أدري لماذا نظرت نحوي بتلك النظرة التي تشبه العزاء.. بدت لي شاحبة فجأة.. وكنت أنظر إليها نظرة متوسلة! خطيبك؟ منذ متى؟ ولماذا؟

لماذا كان علي أن أتواجد الآن لترميني برصاصتك المهدبة؟ خطيبك؟ نظرت إليه.. كان صامتاً.. ينتظر أن أمد يدي لأصافح يده الممدودة.. تأخرت في مد يدي التي كانت ترتعش رغماً عني.. أحسسته محرجاً.. وكنت أنظر إليه بذهول.. نظرت إليها.. إلى يدها التي أخفتها خلفها، كتلميذة تنتظر التوبيخ!

خطيبك؟ يا لقسوتك وأنت تلعبين الدور جيداً. يا لعينيك سيدتي وأنت تتظاهرين بالحياد قبالي. هل كان علي أن أنحني لإجلالاً لك لأقول لك كما يقول أي جنّلمان: مبارك لكما ما ستفعلانه! هل

يمكنني أن أبارك هذه الرصاصة المغلفة بالحرير وأنت تصوّبينها نحوي، بابتسامة لا تخلو من قسوة.. بقسوة تفتقد إلى الإتيكيت! كنت واقفاً أنظر إليهما وهما يبتعدان عني.. نظرت نحوي نظرة أخيرة وأدارت لي ظهرها متأبطة ذراعه.. تلك الصورة التي تشبه صورة فيلم شاهدته وأنا طفل. لعلني أحببت شارلي شابلن كثيراً في دور المغفل الذي أوصل حبيبته إلى رجل آخر لأنه لا يملك ثمن الطعام الذي سيقدمه لها! كان شابلن ينظر إليها وهي تذهب لغيره، مبتسماً لأنه أنقذها من الجوع! شعرت يومها بالعطف نحو شابلن. شعرت أنه يستحق العطف فعلاً... هل كنت شابلن في تلك اللحظة؟ لا... لم أكن شابلن.. لم أوصلك لأحد.. بل جئتك قبلاً. جئتك معتقداً أنك انتظرتني خالية القلب... كان يخيّل إلي أن المقارنة بين الماضي والآتي ستكون لصالحني وأنت لن تقدرني على أن تقول لي "أحببت من قبل" بل أن تقول لي "أحبك من زمن الطفولة الأولى إلى آخر ما في الحياة من حياة!"

خطيبك؟ ألسنت أنت من كانت تجلس إلى جوارني لتحكي لي ولتصغي إلي. كنت أجد متعة الكلام في حضورك، أنا الذي لا يتكلم عادة. أجلس معك وأحكي عن أشياء كانت تبدو لي ضرورية.. كان يكفي أن أحكيها لك لأشعر بقيمتها. حكيت لك عن عمتي التي ماتت حاملة معها حباً صامتاً ومستحيلاً، وعن جد مات مشلولاً ومكسوراً. حكيت عن أحلام الطفولة المكتظة بالأسئلة.. حكيت لك عن الجامعة والناس الذين يدخلونها فارغي الرأس ويخرجون منها فارغي الأحلام.. عن أولئك الذين عرفتهم.. عن أصدقائي الذين تشبّثوا في هذه الأرض.. عن أولئك الذين غيّرُوا وجهتهم ليتحولوا إلى اللاشيء.. عن الكتابة. عن الصحافة. عن

الحب.. نعم عن الحب.. أليس الحب سياسة أحادية الطرف أحياناً.. أليس الحب معناه كل هذه التناقضات التي تصنع منا عاديين أحياناً وتافهين في أحيان أخرى؟ لعلّي حكيت لك عن أحلامي الحميمة.. يوم شعرت أن صوتي بدأ يرتعش.. كنت يومها عارياً من الكذب.. تمنيت أن تقولي شيئاً حين قلت لك إن الحب هو ما بدأنه أطفالاً.. ولم تعلّقي.. نظرت نحوي وصمت.. وبقيت أبحث عن يدك! لم أسألك عن الحب.. كنت أكتفي بحكايتك القصيرة. رحلتك مع الطب. حلمك الأول أن تصبحي طبيبة لأجل والد أعرفه جيداً.. والد قتله كبرياؤه وكسر الوطن قلبه في عبارة "واجبك أن تموت بائساً"!.. هل كنت سأفهم لو أنك قلت لي من البداية إن الحب لغة غير رسمية وأن الذين يتكلمون بها لا يجيدون الحب أساساً. الذين يتكلمون عن الحب عاجزون رسمياً. كنت سأفهم تماماً ذلك، لو لم تضعي يدك على ذراعي، لو لم تنظري إليّ بتلك الطريقة التي لم ينظر بها نحوي أحد.. لو لم تقولي "اتهلا في روحك".. لو لم تقولي ذلك كنت سأعرف الخروج من الباب الخلفي مباشرة كما يفعل الكومبارس بعد دور قصير وتافه.. لو لم تغريني بغرورك لأن أبقى قليلاً.. لأن أنتظر عمراً آخر، أنا الذي انتظرك كثيراً.. يا لقلبك وأنت تتأبطين ذراع ذلك الرجل الذي كرهته منذ أن رأيته.. كرهت نظراته إليك، وابتسامته المغرورة بك.. كرهت يده وهي تضغط على ذراعك.. كرهت مشيتك الهادئة إلى جواره كمن لا همّ له.. كرهت نظرتك لي وأنت معه. وأنت تتأبطين ذراعه باستفزاز لا يخلو من تعمد.. ألهذا الحد كنت لا شيء؟ ألهذا الحد كان حضوري عادياً وتافهاً وغائباً. مع أنني قاسمتك أشياء اعتقدتها حميمة جداً وخاصة جداً واستثنائية جداً. مع أنني أجيء

لأجل أن نكمل كلاماً بدأناه منذ ألف عام.. يا لقسوتك.. لم أكن مضطراً لأقول لك أكثر مما قلته، لألامس جراحك وأحزانك.. حتى وأنت تبدين أشد غروراً يوماً بعد آخر.. حتى وأنت تتكلمين معي أحياناً بعبارة توحى لمن يصغي إليها أنها لا تختلف عن أي خطاب سياسي يحمل مطالب ثورية ساذجة! أيتها الصغيرة الساذجة. كأنك تنتقمين من الوطن عبري. كأنك فكرت أنني السبب في كل الجرائم التي وقعت في البلاد.. لكم كنت مكسوراً يومها... شعرت أنني لا أملك حق البقاء هنا، بجوار رجل قد يموت في أي وقت، وبجوار امرأة لا تحتاج إلي! فجأة فقدت الرغبة في الذهاب إلى العمل أو الحضور إلى المستشفى. وجدتي أفضي الوقت مشياً في الشوارع كمتسكع بليد. كان الشارع قبالي كثيراً كوجه غادره الفرح. وكنت قبالة وحيداً كيتيم دفن أمه للتو.. ألم أكن يتيماً فعلاً؟ أنا الذي وجدت نفسي على حافتك منهاراً... بدت لي حياتي مسرحية مملة.. كفيلم شاهدناه مراراً بالأبيض والأسود..

بعدك لا شيء يساوي أي شيء كان أو يكون.. بعدك.. تبدو لي الأشياء جاهزة للموت، وأبدو قبالتها جاهزاً للبكاء.. بعدك.. لا المدينة ولا الوطن ولا الوظيفة يقدرّون على إعادتي إلى طقوسي الأولى التي علّمتني بدعة الحب، وأعادتي إلى قداسة الاعتقاد أن الحياة تستحق العيش، وأن الانكسارات التي مضت تستحق أن أتجاوزها بفقدان الذاكرة.. يا جنّة تحملين وجهها.. يا مدينة دخلتها معتقداً أنني آخر الفاتحين!.. يا صوتاً شبّهته بصوت أمي.. ألم يكن عليّ أن أحبك بعد هذا؟ أنا الذي عاش شتاته بكامل وعيه. أنا الذي وعدني الله بأرض أسكنها وشارع لا أدخله خوفاً من الرصاص، ويمكن أن أجلس فيه سائلاً عن صحة الوطن، ومترحماً

على روح الوطن، وباكياً على جثمان الوطن! يا امرأة حملت لي
أبجدية الحب الأولى.. كيف لم تفهمي أن الحب كالرصااص،
يصيب من يتوقعه أكثر.. يصيب من ينتظره أكثر.. يصيب من يعتقد
أنه لا يلبس واقياً منه بموجب ما يعتقد أنه يقيناً حميماً. لم يكن لي
ما يجبرني على التفكير كما فكروا. كنت عاجزاً حتى في خيباتي
الكثيرة واليومية، وكنت معزولاً في إحساسي ووحدتي وفي
فوضاي... أعترف أنني لم أكن أحب النظام. فوضوي أنا حد
الشمالة. أتضايق من النظام الذي يبدو لي أحياناً نموذجاً غير مثالي
لحياة أقل مثالية من اللازم. كيف يمكن لرجل أن يحب نظاماً قائماً
على كل هذه العبثية مثلاً؟ كنت أعني أن الفوضى هي الناطق الرسمي
لكل الناس.. لم يكن ثمة شخص يقنعك أنه منظم في هذه البلاد.
يمكنك ببساطة أن تكتشف حدة اللا نظام واللا انضباط في سلوك
الجزائريين في تعاملهم مع الوقت، كأن تعطي موعداً لأي جزائري
فيأتيك متأخراً ساعة ليقول لك في النهاية: ازدحام الشارع رهيب!
لتفهم أنه عليك ألا تنتظره في المرة القادمة!

كنت فارغ اليدين فجأة.. من الأمس إلى اليوم وجدتني أتسكع
في الشوارع بلا أدنى رغبة في العودة.. ثم حين قررت العودة
وجدتني أعود إلى المستشفى كمن يريد التأكد من خيانة رآها بعينه..
لم أكن راغباً في البحث عنها ولا في رؤيتها.. لأول مرة منذ إصابة
النذير أكتشف أنني أريد رؤيته هو.. اكتشفت أنني أفقده فعلاً..
وأنني ختته بطريقة ما حين نسيته بسبب أخته! شعرت أنني أفقد ذلك
الصديق الاستثنائي الذي اسمه أخوك! أليس من الغريب أن أشتاق
إليه، الآن بعد أسبوعين شعرت فيهما أنني أعيش شيئاً ولدت لأجل
أن أعيشه في حضورك، وها أنا أبحث فجأة عن سبب أعزي نفسي

من خلاله على ما اقترفته من ذنوب في حق نفسي! فكّرت أن مكاني إلى جانب النذير، ربما لأن الرصاصة أخطأتني وأصابته. لم يكن النذير يكتب كثيراً، كان يشرف على جريدة كنت أنا من يكتب افتتاحيتها، أنا من يكتب التحقيقات الأهم فيها. لم أكن بحاجة إلى رسالة تهديد باسمي لأعرف أنني المقصود ولعل النذير ذهب خطأ بالنيابة عني! لعل الرصاصة كانت تبحث عني في صدره.. أنا الذي لم أرافقه إلى بيته ذلك النهار. كنت وقتها مضطراً للبقاء في المكتب بانتظار مكالمه من كريمو... كنت قد طلبت منه أن يرسل لي بعض الصور المتعلقة بمجزرة وقعت في مدينة البليدة. وانتظرته في المكتب. لهذا ذهب النذير إلى أمه وحيداً. توقع أن أغير رأيي والحق به ولكني أنا صاحب المواعيد الدقيقة، وجدتني أنتظر صديقاً تأخر عني ساعتين وحين جاء راح يسب في الشوارع والازدحام والناس.. ولعله سبني أنا تحت السطور كوني من طلب منه الحضور إلى مكتبي!

لم يكن كريمو يخرج كثيراً منذ صارت مهنة الصحافة سبباً مباشراً للموت. منذ وجد الصحفي نفسه ضحية سهلة ومستساغة لقتلة يتدربون على "القتل" عبر جثته.. كان كل صحفي أشبه بحركي في نظر القاتل.. وكل قاتل يبدو كأنه يحمل قناعة "عمي العربي" في حربه القديمة، في معاركة القديمة، في ثورته القديمة التي بموجبها كان يشعر أنه يؤدي واجباً حتمياً في تطهير الوطن من هؤلاء الأوباش الذين أسمّتهم الثورة "خونة" أو عملاء، أو ببساطة جعلتهم عالية على الجزائريين الآخرين. لهذا كان يبدو لي كل صحفي أشبه بذلك الـ "عميل" الذي كان ينتظره العربي مصمماً أنه يؤدي عملاً لا يمكن أن يقوم به غيره. ولهذا مع كل صحفي يتعرض

للقتل كان ثمة سبب آخر في تكبير حجم الرصاصه التي أصابته لنشرها في الصفحة الأولى .. لأجل إخافة الناس عبرها. وجعل الأحياء يختارون الصمت أو الهرب من البلاد. كنت لسبب غامض أتساءل لماذا لم أستطع مغادرة الوطن؟ كنت قادرا على الهجرة إلى الخارج كما فعل الجميع. كما يفعل الجميع. ولكني .. كنت من الذين لا يهاجرون إلى الخارج بل يهاجرون إلى الداخل، ليس عن وفاء ولا عن ولاء .. بل عن عجز في العيش بعيداً عن مكان ما زلت أعتقد أنه مخلوق لأجلي! لم أهاجر لأن كل المدن لا تستوعب جرحي .. ولأن إحساسي باليتم ظل شاسعاً لا يغمره وطن آخر .. فحين نفقد الوطن نفقد قدرتنا على تجاوزه بالسفر!! ربما بدا لي كريمو مختلفاً حين قابلته أول مرة في مقر أحد الأحزاب السياسية، حيث أقيمت ندوة صحفية لطرح حلول للأزمة الجزائرية! كان كريمو وقتها يدخن بشكل لفت انتباهي. كان ضجراً، نظراته توحى إليك أنه تورط في الحضور إلى هنا! بسرعة جلسنا قبالة بعض .. وبسرعة شعرت أن ما بيننا يمكن تفسيره ببساطة على أنه الرغبة في الهرب من هنا! كان كريمو يريد الهرب من الوطن أيضاً، هو الذي درس التصوير في فرنسا. تعلّم أن الصورة أهم من الضوء الذي يلمع لحظة التقاطها. الصورة هي الذاكرة الأبدية بينما الوميض هو إعلان عن صورة ليس إلا! الصورة الجيدة هي التي تبقى دائماً، وهي التي تعود إلى السطح بعد مليون سنة أخرى! أن تلتقط صورة أو لا تلتقطها فليس هذا هو المهم، المهم أن تعرف أنك حين تلتقطها عليك أن تحترم ذاكرتها! هكذا كان كريمو يحكي لي عما تعلّمه في فرنسا من فن التصوير. ويقارن بين فكرة التصوير هنا وما تعلّمه في المعهد هناك .. كان يعتقد أن الصورة في الوطن مرادفة للا ذاكرة .. فالناس

ينظرون إلى الصورة دونما إحساس حقيقي. لا يتذكرون أبعاد الصورة ولا زمنها الحقيقي، ولا ظروفها. ينظرون إلى وجوههم فقط ويقارنون بين الصورة والحقيقة، وبين ما آلت إليه حالتهم.. قد تكون الصورة ملتقطة في ظروف أفضح من هذه وقد تكون أقل وقاراً من الآن، مع ذلك تبدو لهم مختلفة لأنهم ينظرون إليها من زاوية العاطفة فقط، وليس من زاوية العمر أو الذاكرة.. لهذا السبب يشعرون بالخوف أمام صور الموت المتكررة أمامهم. لا يحتفظون بتواريخ المجازر، ولا بأسماء الضحايا.. لكنهم يحتفظون بخلفية الصورة التي تعكس المأساة وليس تفاصيلها.. كان كريمو واحداً من المولعين بالصورة، كان مصوراً مجنوناً. تلك طريقة مثلى في القول إنه كان بارعاً أيضاً، ومدهشاً ورائعاً.. لم أكن على اتفاق تام معه، بالرغم من لحظات من الإعجاب المتبادل الذي كان يشعر بها أحدنا نحو الآخر. إعجاب لا يخلو أحياناً من حسد! ربما كنت أحسده على إحساسه المستمر بالقدرة على الاعتراف أنه بحاجة إلى الهرب إلى الخارج، وكان يحسدني على قدرتي الغريبة على البقاء في الداخل برغم العروض التي تلقيتها للهجرة! كان يفهم أنني من النوع الذي يبقى ولا يغادر، وكان يشعر أنه عليّ أن أغادر كي لا أبقى! لم أعرف عن كريمو أكثر مما يعرفه الجميع، بأنه عاش وكبر في أحد الملاجئ. كان والداه على قيد الحياة. ومع ذلك عاش يتيماً. كان كريمو في الخامسة من العمر حين قررت أمه أن تتركه للملجأ بعد أن قررت الزواج ثانية. لم يكن كريمو شرعياً، كان نتيجة علاقة "عولمائية" بين رجل وامرأة كلاهما فقير. كان شبهة مسبقة بالكلام، ولهذا جاء كلجنة تطارد من ارتكبتها طول العمر.. في الملجأ اكتشف كريمو الوجه الآخر من الحياة. بين أطفال كبروا معه

على نفس الشعور باليتم. كان لهم آباء وأمهات. كان لهم أخوال وخالات.. أعمام وعمات. ولكنهم عاشوا في الملاجئ لأنهم ولدوا غير شرعيين! أليست تلك هي الصورة التي بقيت راسخة في ذاكرته؟ صورة اليتيم المتكرر الذي شكّل وجهه ووجه جيل كامل كبر معه في نفس الملجأ.. ربما كان أحسن حالاً من غيره حين وجد فرصة في الدراسة. وسافر إلى فرنسا ليتعلم فن التصوير.. كان كريمو أشقر ووسيماً إلى حدّ ما، ومن النوع الذي يلفت الانتباه بطريقته في النظر إليك. وكان متميزاً في حنقه المكشوف ضد كل شيء يعتبره لقيطاً أيضاً. لعله الشيء الذي لفت انتباه أستاذه إليه، يوم كتب موضوعاً عن الصورة/ اللقطة وشرح فيه أن الصورة هي نظرة لقيطة لجسد مومس! استدعاه الأستاذ ليستفسر منه تلك الجملة الوحيدة التي كتبها على صدر ورقة الامتحان. وحين وقف كريمو أمامه قال له الأستاذ بنبرة أرادها طيبة: ما الذي كتبت يا بني؟ ولأن الأستاذ قال له "يا بني" فقد شعر كريمو بشيء من الحذر والريبة.. كان كريمو يكره طريقة أستاذه في الحديث عن الصورة الأخرى حين يريد ربطها بشكل لا يخلو من سياسة ومن مكر ومن رياء بما يجري في العالم، بالخصوص بما يجري في الشرق الأوسط مثلاً أو في الجزائر.. كان كريمو يشعر بشيء من الضغينة نحو أستاذه الذي من أول يوم في المعهد عاتبه على "مثاليته" في النظر إلى الأمور. قال له أن المصور ليس شخصاً عادياً وحين يصبح المصور عادياً يصير كأَي إنسان آخر لا يمكنه الحكم بين ما هو منطقي وما هو غير منطقي.. تلك الجملة التي استفزته، أشعرته أنه أمام سلطة أبوية تسببت في يتمه القديم، وتسبب في يتم أجيال أخرى من الشباب غيره. لهذا حين استفسر منه الأستاذ عن جملته تلك على ورقة الامتحان، قال له كريمو

بصوت أراده حازماً: أنا قلت رأيي باعتبار أن السؤال تطّلب رأيي...! ومع أن الأستاذ ابتسم بسخرية إلا أنه ظل ينظر إليه، ربما بشكل لا يخلو من تعاطف أيضاً مع شخص يعرف جيداً من خلال ملفه الخاص في المعهد أنه (بلا أب) وأنه تربى في الملجأ..

في السنة الثانية من دراسته وهي السنة الأخيرة بالنسبة إليه. فكّر كثيراً في إمكانية بقاءه في فرنسا والعمل بأي صحيفة أو مؤسسة إعلامية، لكنه لم يجد.. كان محكوماً عليه بالعودة، لأن أوراقه غير كافية، ولأنه جزائري ولأن دراسته أساساً تكفل بها المعهد بعد مسابقة فاز على إثرها كريمو بتذكرة السفر إلى هناك. كانت المسابقة تعتمد على التقاط صورة الوطن وفق شروط لجنة التحكيم التي أرادت أن تكون الصورة جزءاً من ذاتية الوطن، ربما لأسباب لا تخلو عن نفاق سياسي، لكن كريمو فاز بالمسابقة. التقط صورة امرأة على قارعة الطريق، وقد وضعت أمامها يافطة مكتوب عليها: القانون طردني من بيتي! كانت تلك المرأة كافية لتجعل من الصورة وجهاً "للتخلف" الجزائري الملموس من وجهة النظر الفرنسية. لم يشعر كريمو أنه يبيع شيئاً محرّماً للفرنسيين، ولم يشعر أنه يسوق لشيء سياسي أكثر منه اجتماعي أو أخلاقي، كان يدرك أنه لو لم يلتقط تلك الصورة فسيلتقطها غيره. لم يكن مسموحاً أن يغض الطرف عن امرأة تشهر لافتة بهذا الشكل لتعلن أنها تنام في الشارع لأن القانون طردها من بيتها وأن أطفالها سيكرهون الوطن والقانون معاً لأن أهمهم صارت في الشارع! كان كريمو يعي ذلك جيداً ولهذا حين أرسل الصورة ضمن مشاركته في المسابقة فعل ذلك عن قناعة أنه يشارك في مسابقة ستحقق له إن فاز بها حلم السفر إلى الخارج والدراسة والاستقرار والزواج وإنجاب أطفال سيكون إلى جانبهم

بدل رميهم في ملجأ "قومي" ! في فرنسا كان مطالباً بالبحث عن الصورة الأخرى للمشاركة في مسابقة التخرج من المعهد بعد عامين من الدراسة على نفقة الفرنسيين ! كان ذلك في شهر مارس/ آذار حين انفجرت مظاهرات في العاصمة الفرنسية. قادها فرع اتحاد الطلاب المغاربة تضامناً مع طلبة فلسطينيين طردوا من الجامعة بتهمة الانتماء لخلية إرهابية ! كان قرار الطرد تعسفياً ومقصوداً. قرار طرد الطلبة أثار غضب الطلبة العرب. لم يكن كريمو يحتاج إلى أكثر من تلك المظاهرة ليخرج آلة التصوير ويذهب متعاطفاً مع قضية رآها عادلة... كان الطلبة يومها في حالة من الهدوء وهم يعتصمون في ساحة الجامعة، ربما لأن قرارهم كان مشتركاً بأن تكون المظاهرات سلمية، ولكن الشرطة التي طوّقت المكان أرادت استفزازهم.. ثم فجأة.. عن حاسة "سابعة" قرر كريمو أن يصوّر المشهد.. وبدأت آتته تتكلم نيابة عنه وعن البقية.. كان الطلبة يومها مصممون على التظاهر سلمياً والشرطة من جهتها مصممة على استفزازهم بالحركات والعبارات... وفجأة.. في لحظة لم يتوقعها أحد بدأت الشرطة تحاول تفريق الطلبة بالقوة، مستعملة العصي.. بسرعة تكلمت القنابل المسيلة للدموع، وانطلقت الكلاب البوليسية في نهش لحم الطلبة المتظاهرين. صورة التقطها كريمو فجأة وتحولت إلى الصورة الأكثر توزيعاً في العالم.. تلك الصورة التي عرّت الوجه الآخر للحضارة الفرنسية... صورة استطاع كريمو أن يربح رهانه مع نفسه حين نشرها، وحين فجأة صارت على صدر الصحف الجزائرية كما لو كانت تلك الصورة هي القناة الوحيدة للجزائريين أن فرنسا لم تتغير ولن تتغير في كولونياليتها إزاء الآخرين ! لكن.. ما أثار الكثير من التساؤل هو كريمو نفسه الذي قرر الرجوع إلى

البلاد.. لم يبق هناك. عرضت عليه وكالة الأنباء منصب عمل قبل به مباشرة. وعاد.. عاد ليصوّر ما يستطيع تصويره. عاد معتقداً أن شهرته كمصوّر بارع ستحميه من لعنة اليتيم التي طاردته من قبل وحولته إلى رجل عاجز عن العيش والحلم في بلد الآخرين. حتى حين أحب شعر أن الحب سيحمي ما تبقى من كرامته المجروحة. الحب الذي اعتقده مناهضاً للضعينة والحواجز الاجتماعية والاسمية.. لكنه أخطأ.. عندما قرر التقدم لفتاته رفضه أهلها وهدده أخوها بالقتل قائلاً له: لا تزوج ابنتنا لابن حرام..! أحس أن الإهانة وصلت إلى العظم. ولسبب كبير شعر بالضعينة المزدوجة.. أن يتعرض كريمو للرفض لم يكن صدمة فقط، بل كان انكساراً رهيباً بالنسبة إليه، وبالنسبة لمشاعره نحو المرأة الوحيدة التي أحبها.. ما الشرعية قبالة الحب؟ الحب الذي اعتقده مضاداً وحيداً لكل الخيبات التي عاشها من قبل، لسنوات اليتيم الطويلة. لوالده الذي لم يأت لزيارته مع أنه حي.. ولوالدة نسيته تماماً منذ قررت الزواج من رجل "محترم".. شعر برغبة القول أن اللا شرعية ليست أكثر من هذا الراهن المختبئ خلف الشرف الهش. وأن الشرف كذبة أخرى يمكن إخفاء الرذيلة خلفها. فهو عوقب على جريمة لم يقترفها. عوقب نيابة عن أبيه وعن أمه. نيابة عن كل الذين تسببوا في يتمه المبكر.. قرر أن ينتقم في لحظة جنون.. لم يكن انتقامه إلا ردة فعل ارتكبتها عن إحساس مسبق بأنه ابن حرام. كان الحب هو الضحية الوحيدة في مشهده. كان الحب شرعية غير مشروعة.. إنذار مسبق ألا شيء يمكن تعويضه بعد فقدانه. فجأة، تحوّل كريمو من راغب في الزواج إلى راغب في الانتقام.. بسرعة تحولت حبيبته إلى عشيقته. منحته نفسها عن حب. كانت تقاسمه الشقة نفسها والسرير نفسه، وفي المساء

تعود إلى أبيها لتثبت ولاءها إليه! كان كريمو يشعر أنه لم يخن، وإن كان ينظر إلى نفسه كابن حرام حقيقي..! كريمو الذي أصبح مصوراً بارعاً هو نفسه الذي أصدر قبل سنة كتاباً يضم ما أسماه بالصور اللقيطة الأجمل بالنسبة إليه.. صور المجزرة اليومية، والقتلى اليوميين والموت اليومي. صور النساء المطرودات من بيوتهن قانونياً، والرجال المطرودين من وظائفهم قانونياً والأطفال المولدين في الملاجئ قانونياً!

ذاك هو كريمو الذي جاءني يومها إلى المكتب.. يومها تركت النذير يذهب لزيارة أمه دون أن أرافقه لأن مجيء كريمو جعلني أبقي حياً في الوقت الذي أصاب الرصاص النذير!

«Je t'aime tant! Peut-être maladroitement, mais sans détour!
Comme on peut aimer un enfant tremblant d'amour!
Je t'aime tant, d'un amour pur, et merveilleux éperdument! Comme un
croyant peut aimer dieu aveuglement!
Je t'aime tant! Ton amour est une île inconnu et sauvage! Où mon cœur en
péril chaque jour fait naufrage! Terre où ton seul nom est ma frontière et
ma prison! Je t'aime tant! Et quand mes yeux plongeant tes yeux tendres et
profonds! J'ai le vertige et j'en veux toucher le fond! Je t'aime tant! »

كنت جالساً في كافيتريا قريبة من المستشفى، أصغي إلى هذه
الكلمات بصوت "شارل أزنافور" .. كنت أشعر بشيء غريب يستولي
علي .. شيء ثقيل ومثير للبكاء وأنا أستمع إلى تلك الأغنية. كان
الناس يرتشفون قهوة أو عصير قباله بعض. بعض العشاق الذين
هربوا من المدينة وجاءوا خلصة إلى هنا ليجلسوا قباله بعض ربما
للمرة الأخيرة! فقد صار الموت حاضرا. هل ثمة تعويضاً يكفي
لتغطية جرح كهذا الجرح؟ أن تفقد أبا فأنت يتيم .. أما أن تفقد وطناً
فأنت مفجوع إلى الأبد .. بين اليتيم والفجيعة تولد النهارات التي
تأتي عبثاً .. يولد الكلام الذي لم يعد يقول شيئاً .. ليأتي الناس إلى
هنا .. ليأتي الشاب متأبطاً ذراع حبيبة خائفة .. يتناول معها شاياً
وحلماً مستحيلاً يعرفان جيداً أنه لن يتحقق. يقول لها أحبك
فتبتسم .. أو تقول له أحبك فيضحك .. هو الحب الذي صار لعبة
مسلية، كالكلمات المتقاطعة في جريدة يشتريها شخص ليتسلى بها
ثم ليرميها في المزبلة قبل مغادرة المكان!

تمنيت لو كنت قبالتي. لو جلست أمامك هكذا حزينا. لو كان
بإمكاني أن أقول لك أحبك لتبتسمي .. أو تقولي لي أحبك لأنظر
إليك بعمق وارتباك .. لو كان لي أن أصدق لحظة واحدة أنك قابلة

للرجوع إلي، فأبتسم، كأنك كنت لي حقاً لترجعي إلي. ألسنت أشبه
مراهقاً يقع في حب مدرسته الجميلة؟ كنت ذلك المراهق الذي صدق
أن اللمسة هي الأبدية، وأن اليدان حين توضعان على الذراع فلنكي
تحجزهما إلى الأبد.. شعرت أنني وقعت في فخ قلبي الكئيب..
والواسع بالفراغ.. قلبي الوحيد والمعزول عن العالم! قلبي الذي لم
يفتح بابه للآخرين خارج النص الذي يكتبه. لم يقل كلمة حب حقيقية
خارج الحلم الذي عاشه في مقال على شرف الوطن الضائع قبلاً..
ما الحب؟ أليس الحب هو ذاكرتنا المعطوبة؟ أليس اعتقادنا أننا
استثنائيين في الوقت الذي نكون فيه تافهين حد الهباء؟ ما الحب؟ ما
الحلم؟ ما الفرح؟ ما الوطن؟ كلها مصطلحات سهلة تصلح لحل
كلمات متقاطعة على عجل قبل الوصول إلى محطة انتقالية! ألم أكن
مراهقاً في حضورك؟ كنت مراهقاً وأنا أظنني طرزان جاء يخلصك من
غيلان الزمن الجديد لأكتشف أنني فارغ اليدين..

اليوم العشرين:

عدت أدراجي إلى المستشفى.. أردت أن أقنع نفسي أنني لم
أت إليك. فكرت أنك لم تعود مستعدة للإقبال نحوي! جئت لأجل
أخاك هذه المرة. لأجل النذير الذي فكرت أنه بحاجة إلى حضوري.
النذير الذي أصيب نيابة عني! عنا! كان صديقي، لكنني نسيت في
الأسابيع الأخيرة أنه يجب علي تذكر أنه صديقي كي لا أنجر خلف
الوهم المجسّد يقيناً قبالي.. كنت أشعر كما لو كنت في التسعين
من العمر، وأنك الربيع الوحيد الذي أقبل إلى شيخوخة هرمة
ومريضة.. أنا الذي نسي أن الثلاثين عاماً قد تكون خادعة وباردة!
دخلت وككل مرة أقترّب فيها من وظيفة الاستقبال، أسألها
عن آخر أخبار النذير تنظر إلي بصمت ثم تقول كما تقول كل مرة:

ربي رحيم! كنت سأعلق بشيء، ولكن.. ما جدوى ذلك؟ وجدتني أسأل عن الطبيب ليسمح لي بالدخول للحظة.. كنت أعرف مسبقاً أنه سيرفض طلبي بحجة أن المريض في غيبوبة.. ماذا يمكن رؤيته في مريض غائب عن الوعي منذ عشرين يوماً؟ سألتها عن إمكانية رؤية المصاب للحظة فقط.. نظرت الممرضة نحوي بتعاطف أضجرتني.. ثم قالت كأنها توشى لي بسر:

- سأتركك تراه، ولكن أرجوك للحظة فقط، لأن الطبيب مانع زيارته!

شعرت بالخيبة.. تمنيت لو قالت أي شيء بدل أن تسمح لي بذلك من وراء ظهر الطبيب المسؤول! لعل خيبتني ظهرت على ملامحي لأن الممرضة راحت تنظر إلي بطريقة مليئة بالدهشة والتساؤل. حاولت التفكير في كل شيء ما عدا اللحظة التي أجدني فيها قبالة صديق شبه ميت.. فكرت في تلك اللحظة التي أجلتها فعلاً. لم أدخل إلى غرفته قط. رأيت أخته وأمه وأخوه يدخلون.. بينما بقيت أنا مكاني لا أجرؤ على الدخول. خفت أن أرى شكل الموت على وجهه. خفت أن أتلصص جبني في رقده تلك في تلك اللحظات الاستثنائية التي ما زال فيها دمه ينز طريراً.. كنت أشعر بالخوف من اللحظة التي أدخل فيها لرؤية مصاب على وشك الموت. مصاب تعلن كل ملامحه أنه كان أكثر شجاعة مني ومن بقية الأحياء الذين سيموتون في أسرهم بنزلة برد أو بنوبة قلبية أو بالتخمة الغذائية.. الفرق بين الموت والموت في ماهية الموت نفسه، في كيفية الموت.. كأن يموت الإنسان واقفاً أو منبطحاً! كان النذير من النوع الذي لا يقبل بالموت غير وقوفاً.. حتى وهو مصاب بدا لي مبتسماً. خيّل إلي أنه يبتسم. هالتني تلك الابتسامة. رغم

حالته المثيرة للصدمة وقناع الأوكسجين.. رغم لاوعيه بدا لي مبتسماً بسخرية لم أر مثلها من قبل.. خيّل إليّ أنه لسبب ما يسخر مني أنا تحديداً.. أنا الذي لم يعرف ماهية الموت خارج كل هذا الوجع الهلامي والملموس.. أنا الذي توقع رصاصة استقرت في صدر صديقه.. أليس هذا بحد ذاته يستحق الابتسام بسخرية؟ أليس هذا وحده يكفي لأرتبك، لأفقد لساني وهدوئي؟ كنت واقفاً أنظر إليه، كنت أريد أن أنظر ملء عيني فقط لأنتهي من كل ذلك الخوف الذي استولى عليّ.. لأتخلص من إحساسي بالخيبة والحزن معاً.. أنا الذي اعتقد نفسه استثنائياً حتى في فكرة الموت التي يحلم بها.. ولكن... ما جدوى كل هذا الهباء؟ ما جدوى العمر الذي يمضي مسترخياً على ضجرتنا من الحياة نفسها؟ هل يمكن لمثلي أن يشعر بغير هذا الفراغ قبالة شخص مثل النذير.. كنت واقفاً. ولعلي ارتعشت لحظتها حين شعرت بيد توضع على ذراعي.. كنت قد نسيت الممرضة أمامي.. نظرت إليها.. اعتقدت أنني قادر على قول شيء.. على الاعتذار أو على التعليق بكلمة واحدة تغطي الصمت المهول السائد داخل الغرفة. ولكن... حين نظرت إليها كانت هي.. واقفة أمامي، تنظر إليّ بعينين حزينتين.. كانت واقفة، وربما كنت أرتعش بدلاً عنها، فقد خيّل إليّ أن شحوب وجهها نابع من قلبي أنا.. وأني لسبب غريب ازداد رغبة في البكاء.. نظرت إليها.. خيّل إليّ أن تلك اليد الموضوعة على ذراعي قادرة على الأذى فعلاً، بقدر ما تمنحه من دفء يمكنها أن تكون قاسية حد الوجع.. نظرت إليها من جديد، سمعتها تقول أخيراً:

- هيا، لا يمكنك أن تبقى هنا..!

كانها تقول لا حق لك في البقاء داخل غرفة يحتضر فيها شهيد

سيرحل عن هذه الدنيا الفاسدة.. كأنه لا يحق لي أن أبقى في مكان
يكثر فيه الشهداء/ الموتى جماعات أو فرادى.. شعرت بالإهانة.
إهانة غريبة وحقيقية.. وجددني أمسح على شعري براحة يدي..
شعرت بالتعب.. ولأنها شعرت بالتعب معي جرتني إلى كافيتيريا
المستشفى.. وجلست قبالي شاحبة وحزينة.. حككت لي أن أمها
كانت هنا.. جلست ساعة أمام النذير تنظر إليه! حككت لي أنها بكت
كثيراً اليوم.. كنت أصغي صامتاً ومكسوراً.. كانت أمامي، عارية
من الكلمات وكنت أنظر إليها. فكرت في سؤالها عن خطيبها..
فكرت في عتابها، هي التي حككت لي عن كل شيء لم تحكي عن
خطيب تأبطت ذراعه أمامي. تمنيت لو كانت لي الجرأة لأقول لها
أنها خدعتني بيدها المقدسة حين وضعتها على ذراعي أول مرة.
خدعتني بصوتها، بعينيها وبمشيتها نحوي. خدعتني بابتسامتها
المستغربة حين اعترفت لي أنها لم تحكي لأحد ما حكته لي.. وأن
الظروف كلها غريبة لأنها تجعل الإنسان يقول أحياناً أشياء يعجز عن
قولها في ظروف أخرى مغايرة!

أجل.. خدعتني سيدتي.. خدعتني يدك الجميلة حين وضعتها
فجأة ودون سابق إنذار على ذراعي، كما ريشة تحط على سور
تاريخي هرم.. كان يبدو لي هذا كافياً ليدق قلبي بقوة. لأشعر أنني
سعيد وممتلئ بك حد الثمالة. لم تكوني أنت امرأة من هذا الوطن
الجريح فقط، كنت أنت.. أنت تحديداً. أنت دون كل النساء.. كنت
امرأة رسمتها بدقة متناهية في أحلام طفولتي. الجنية التي لأجلها
كنت أغطس في الوادي. الجنية التي كانت تطل برأسها في حكايات
عمتي.. وتخاريفها العتيقة أيام كان المطر ينهمر بالكلام..

لا! لا تدعي الصمت يبلع لسانك الآن وأنت قبالي.. لا تتركي

لصوتك مساحة للسكوت، بعد كل ما جرى. تكلمي.. قل لي شيئاً
يعيد لي كبريائي المجروحة، ويعيد لي ثقتي بذاكرتي، بأحلامي
الصغيرة والحميمة. قل لي أن الرجل الآخر ليس أكثر من شخص
فقط. حتى ولم أكن شيئاً بالنسبة إليك. لم أَدع شيئاً. فلست محارباً
ولست شاعراً ولست جندياً، بل مطارداً جرت الخييات إلى هنا. جره
حلمه الأول ورغبته الأولى وما آمن به قبلك.. أنا معتقل سياسي
وفكري وإعلامي. كائن ناقص الحقوق والحريات، معطوب القلب
والأحلام.. لست مناضلاً بالمعنى السلبي المتعارف عليه. لست
مجاهداً بالمعنى الجاهز المتعارف عليه. لست مبدعاً بالمعنى الفارغ
المتعارف عليه. أنا ما رأيتني أول مرة. إنسان مشروخ الكرامة في
وطن عاشه واضعاً مسدسه على رأسه منتظراً أن يغادره أو يقتله! أنا
لاكامورا بكامل ضجره اليومي وذلك النحس الذي ظل يتربص
به... كم كنت مجروحاً بك.. فكرت أن أتناول العقد من جيبتي
وأضعه في يدك قائلاً لك: خذيه! لم يعد يلزمني عقدك الذي خدش
قلبي! لكنني لم أفعل. بالرغم من أنني أخرجت العقد ورحت أتأمله
بين يدي أمام دهشتها. خيل إلي أنها صارت شاحبة أكثر من الأول
وسرعان ما تحول الشحوب إلى احمرار مفاجئ وكأنها فهمت
أبجدية عقد تركته في يدي منذ سنين. مدت يدها وتناولت العقد من
يدي وراحت تتأمله كمن يستعيد ذاكرة فقدتها.. نظرت إلي.. كانت
شاحبة وصامتة. خيل إلي أنها ستقول شيئاً ووجدتني أنتظر كلامها
بشوق لا يخلو من ارتباك.. حرّكت حواسي كلها لأركّز على ما
ستقوله، وحين كانت ستتكلم جاءت الممرضة مسرعة نحونا لتطلب
منها الحضور حالاً.. كانت حالة النذير قد ازدادت سوءاً!

* * *

كنت واقفاً قرب الزجاج الخارجي أنظر إليها وهي تقترب من أخيها وتنحني عليه. كانت قريبة منه. ممسكة بيديه بين يديها.. لعلها كانت تبكي. وربما كنت أبكي بدوري، شعرت بيد توضع على كتفي وبحركة غير إرادية وجدتني أنتفض مكاني. نظرت نحو الخلف لأجده أمامي. ذلك الخطيب الذي لا أعرفه. الذي أكرهه دون أن أعرفه.. بسرعة حضرت والدتها وحضر أخوها الأصغر. لعله المشهد الذي استولى علي طويلاً، حين التف الأهل حول المصاب الذي كان يرحل بهدوء.. تمنيت لو يطلب مني أحدهم الدخول والانضمام. شعرت بوخز في القلب حين دخل "الخطيب" وبقيت أنا أراقب المشهد من وراء الزجاج كمهرج لا مكان له إلا خلف الشاشة! كنت الوحيد الذي لم يكن له حق الدخول لوداع رجل كان صديقي. كان واحداً من الذين عشت معهم عمراً استثنائياً من الخوف والحب والحلم. لم يكن لأحد غيري حق وداعه أنا الذي كنت أشجعه على رؤية أمه لأراك.. لألتقيك بين سطرين من التحيات المقتضبة، وبين سؤالين عن الحال والأحوال.. كنت أشجعه على تصديق أبهة البقاء ليقول كلمته. تلك الكلمة التي تركها على مكتبه قبل أن يغادر وبقيت محتفظاً بها. لم أقدمها للنشر لأنني شعرت أنه سيفعل ذلك بنفسه حين يرجع إلى مكتبه. حين قرأت افتتاحيته الأخيرة، شعرت يومها بالذهول. ربما لأنني في قرارة نفسي أحسست أنها افتتاحية رجل يقول كلمته الأخيرة ويمضي.. فكرت أن أنشرها بعد الحادث بيوم، كما تفعل أي جريدة لاستقطاب قراء آخرين، ومتعاطفين جدد، ولتتاجر بدم الضحية/الشهيد. ولكنني لم أفعل.. تركت الافتتاحية في درج المكتب، منتظراً أن يرجع وينشرها أو يغير ما يراه قابلاً للتغيير فيها، هو الذي أعرف أنه لا يغير كلمة

خطها بقلمه ..!

.. في ذلك المساء الماطر والموحش مات النذير. رحل في غرفة مكتظة بمن كانوا قرييين منه. بأمه وأخته وأخيه الصغير، وخطيب أخته الذي لسبب غامض شعرت أنه ينظر إلي بطرف عينيه. كأن وقوفي خلف الزجاج الخارجي ضايقه. كأنه يمنعني من الوقوف ها هنا، في الصف الأخير لوداع شخص ما زلت مقتنعاً أنني أملك الحق في وداعه في الصفوف الأمامية! تمنيت لو كانت لي قدرة الدخول، لو استطعت أن أتغلب على حالة العجز التي أصابتنني لأدفع الباب وأدخل .. وأنظر إليه نظرة تليق به، وبني .. تمنيت لو أنك نظرت نحوي، لو أنك بيدك أشرت لي لأدخل .. تمنيت لو قلت لهم جميعاً: هذا صديقه، يحق له أن يودعه معنا! ألسنت صديقه؟ لماذا أعاقب أنا بدلاً عن المجرمين؟ لماذا علي أن أدان بدلاً عن القتلة؟ لماذا علي أن أبقى هكذا قبالة الجدار .. ممنوعاً من الدخول ومن الكلام، ومن البكاء؟ هل علي أن أثبت ولائي للجميع لأكون أقل حزنًا مما أنا عليه الآن؟ هل كان علي أن أقسم أن الصداقة أهم من البقاء؟ وأن الرصاصة التي أصابت النذير أستحقها عنه؟ أنا الذي ينتظر دوره في القتل. أنا الجسد الذي ستصيبه الرصاصة التي تأخرت. فكيف أبقى خلف الباب كسارق يختفي من عيون ضحاياه؟ ليس لي أن أبكي أكثر مما بكيت وأنا أودع النذير كما لو كنت متواطئاً في موته. كنت واقفاً أنتظر. ثم حين تعب الجميع من البكاء، خرجوا من الغرفة. انتظرت أن تقول لي شيئاً .. لكنها خرجت حزينة ومغرورة .. والدتها فقط من نظر نحوي بحنان لا يخلو من دموع. وجددني عاجزاً عن التخفيف عنها بكلام تافه وغير عقلاني. ماذا يمكن قوله لأم فقدت ابنها البكر للتو .. كيف

يمكن مواساة أم مات ابنها مقتولاً.. كيف يمكن مواساتها بغير الصمت؟ كنت فارغاً مني حين مضت بدورها بعيداً.. بقيت واقفاً مكانى. أنظر إلى النذير وقد صار جثة هامدة!

هل يمكن مواساة رجل على فقدان صديقه؟ كنت بحاجة إلى مواساة استثنائية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من خصوصية. كنت رافضاً التعازي الفارغة والمهذبة بلا صدق.. كنت رافضاً المصافحات التي تشعرني بمزيد من اليتيم وتحسبني أنني لست أكثر من جثة قادمة وتعازي سوف يتبادلها الآخرون من وراء ظهري، ليبرهنوا لأنفسهم صداقات غير حقيقية. كنت رافضاً أن يقول أحد أنه كان صديقي في الوقت الذي كان ينتظر موتى كي يتباهى بما ينشره عني في اليوم التالي! رفضت تلك التعازي الملفقة والمجانية التي تجعل الجميع يجتمع في مكان واحد ليعبروا عن صداقاتهم الحميمة لضحية كانوا يتمنون موتها قبل الأوان.. كان النذير ميتاً، هو الذي لم يكن يضع حدوداً بين الحياة والموت. كانت الحياة بالنسبة إليه خطوة باتجاه الموت.

رحل النذير إذن. مات هكذا.. مات لأنه رفض العيش طويلاً داخل هذا الهباء اليومي. مات لأجل أن يعيش هؤلاء الخونة الذين ساوموه على حياته وأحلامه وراحة باله. مات دون أن يتزوج، دون أن يحقق حلم الأبوة كما كان يتمنى في سره. مات بسيطاً كالفقراء، وعارياً كالأولياء الصالحين.. مات تاركاً أما تبكيه بصمت وأختاً تنظر إلى الآخرين بحثاً عن إجابة لأسئلة الكون. وأخ صغير يشعر باليتيم من جديد! كنت قبالتهم أنظر إليهم. إلى المعزّين الذين تهافتوا على ذلك البيت الذي تحول إلى قبلة كل من أراد أن يتصور ليظهر في نشرة أخبار الثامنة! كان الزملاء من مختلف الجرائد المحلية

ينظرون إلى بعضهم بصمت لا يخلو من ترقب .. كل واحد يتساءل عن الضحية التالية. فأمام كل جثة يتساءل البقية عن الجثة التالية. عن الموت التالي .. اكتشفت يوم الدفن أن كريمو اختار الجلوس قريباً مني بألة التصوير في يده. كنت أنظر إليه وهو يصوّر من حين لآخر ما يراه ضرورياً. كان يغتنم فرصة الموت ليلتقط صورة الجنازة الجزائية. صورة التابوت وهو يخرج من البيت. صورة الموت وهو يراقب الجميع بابتسامة لا تخلو من سخرية. هل كان علي أن أقف ها هنا كرجل لا يعنيه المشهد؟ المسؤولون الذين أتوا بدوا غير معنيين إلا بالكاميرا التي كانت تلتقط لهم صورهم .. بعضهم كان يراقب البقية بتعال لا يخلو من إهانة. كانوا يعرفون أن موت صحفي هو أشد أنواع العدل بالنسبة إليهم، هم الذين يكرهون الصحافة التي وضعتهم على الصفحة الأولى بعبارة "قل لي من أين لك هذا أقول لك من تكون؟" كانوا هنا ينظرون إلى بقية الصحفيين الحاضرين بعينين لا يخلوان من تشف. من رغبة عجيبة على الابتسام لمجرد الانتقام الصامت .. كأن يقولوا: ها أنتم تنقضون في وطن تعتقدون أنكم تدافعون عنه عبر صحافة يعيش فيها الدود!

مات النذير كما يموت شخص نجه .. كما يموت صديق نتمنى له عبثاً حياة طويلة. كنت ما زلت واقفاً قبالة قبره حين انفض الجميع عنه .. وقفت أنظر إلى شكل النهاية. شكل الحياة الأخيرة. شكل البيت الذي سيسكنه إلى الأبد .. راغباً في قول أشياء لم يتسن لي قولها في وقتها. ما الحياة؟ ما الحقيقة؟ ما الموت أساساً .. أليس الموت هو هذه العزلة التي لا يعرفها إلا الميت. حتى الذين يعتقدون أنهم أقرب الناس إليه يغادرونه نحو مشاغلهم .. قد يحزنون ولكنهم أبداً لن يكونوا معه حيثما يكون. لن ينزلوا إليه في القبر حين ينزل

الليل على الناس ولن يسألوه: هل ينقصه شيء؟ هل الوسادة مريحة في قبره؟ وهل الألم أخف بعد الموت؟ لا يمكن لأحد أن يسأل ميتاً عن الموت الذي دخله عارياً.. لهذا، بدت لي الحياة بلا قيمة. تافهة. بدا لي الكون عبثياً. والناس والمدينة والكلام اليومي أو الخاص.. والحب والأحلام التي نشعر أنها تقتل فينا قدرتنا على تحقيقها.. كل شيء لا قيمة له وقد انتهى الأمر.. وقد تحول الموت إلى هذه الصورة التي كنت قبالتها دونما رغبة في التعليق.. لا شيء سوى ما تبقى من عيون أنظر بهما إلى المدى المفتوح على الضغينة والخوف في حي ذهبته مشياً على الأقدام.. كان الظلام دامساً حين وقفت أمام الباب. مددت يدي إلى الجرس. ثم ترددت. لم أشأ أن أربك صمت البيت المحاط بهذه الهالة من الحزن والفجيرة.. وجددتني بدل الضغط على جرس الباب أطرقه طرقة خفيفاً.. وانتظرت.. كنت واقفاً، أفكر في الكلام الذي يمكن قوله بعد الدفن.. بعد التخلص من جثة كانت القاسم المشترك بيني وبينهم.. بين حضوري وغيابي.. تساءلت. هل يمكن للكلام أن ينقل إحساس الفجيرة والانهاء.. كمشهد في مسرحية تنتهي إلى اللاشيء.. بقيت واقفاً متكئاً على الجدار بانتظار أن يفتح لي الباب. ثم حين تأخر الأمر شعرت بشيء يدعوني للرحيل.. كنت لسبب ما أشعر أنني لا أملك حق الوقوف ها هنا، كزنديق لا يحق له التوقف أمام باب معبد.. أدت ظهري لأغادر حين فتح الباب فجأة.. على وجه ظل ينظر إلي بصمت.. لم أقل شيئاً.. بقيت واقفاً أنظر إلى تلك العينين الحزينتين.. كانت شاحبة ودامعة.. ودون أن أقول شيئاً، دون أن أبرر شيئاً وجددتني أجهش بالبكاء!

كيف يبكي الرجال يا سيدتي؟ كنت أسأل نفسي عن الفرق بين

دموع النساء ودموع الرجال؟ لا شيء.. أليست الدموع هي لحظة استثنائية إزاء الأنا.. إزاء الآخرين. إزاء ما يمكن أن يجمعنا أو يفرقنا. لكم عشت أجابه رغبة البكاء. كنت أجابه أمام جد كان يشدني من ذراعي ويقول لي " لا حق للرجال في البكاء!". مع ذلك لم أكن قادراً على مجابهة ذلك الحق، كلما فقدت فيها راحتي وأحلامي وحياتي ومستقبلي وكل شيء... حين كنت أنظر إلى خساراتي كلها! ثم صار الجميع يبكي.. إلى أن رأيت الشيوخ يكون على أشياء لم يكن لهم حق البكاء عليها قبلاً.. إلى أن رأيت الرجال يكون على أشياء كانت تعيهم لو بكوا عليها في وقتها! إلى أن رأيت الوطن يبكي على شعب يموت كل يوم!

هل حان وقت البكاء يا سيدتي؟ ما الفرق بين دموعي ودموعك؟ لا شيء.. ألسنا نشترك في نفس الإحساس بالفجيعة. ألسنا نشترك في نفس الإحساس باليتم؟ ألسنا يتيمين أيتها المرأة المغرورة والحزينة؟ من ذا الذي يستطيع أن يستوعب اليتيم أكثر مني ومنك. أنت التي تشعرين الآن أنك فقدت أباك للمرة الثانية.. أنت التي تشعرين أنك تريدين النواح عمراً كاملاً على ما جرى وما سيجري.. أيعقل أن أكون هنا غريباً وقد صرت مشتركاً معك في هذا الحزن؟ أيعقل أن تتوقعي مني الاعتذار على وجودي الخاطئ هنا؟ أنا الذي جئت الآن نيابة عن أخيك، لأقول لك: أحبك!

أجل أحبك.. ليكون الموت يومياتنا الأخرى والكبرى. ليكون القتل سلاحنا الوحيد ضد الحياة. لتكون الضغينة لباسنا الـ "محتشم" الذي نغطي به عوراتنا الخاصة وعجزنا الحقيقي عن الحب. ليكون الوطن تابوتنا المشترك.. مقبرتنا الجماعية.. ليكون العالم منهاراً أكثر مما هو عليه... ليكون ما شئت أن يكون، لكني أحبك. أحبك

لأنك حزينة ولأنك يتيمة ولأنك وحيدة في غياب أخ استطاع أن
يرحل تاركاً خلفه كل هذا الفراغ. أحبك من دون أن أبررها لك. من
دون أن أخفي دموعي الحارة في الشعور بها نحوك. أحبك هذه تعني
الكثير.. تعني قارة أكتشفها لأجلك وأسميها باسمك.. أحبك تعني
مساحة للبكاء بلا خجل.. أحبك تعني هذه الأرض الجاهزة
للكلام، والمشي تحت المطر. والجنون حين تكف الحقيقة عن أداء
دورها الحتمي.. وتعني أن لي بقايا حقوق لديك، وأنك برغم كل
شيء وطني الآخر الذي ولدت لأعيشه برغم القتل والعتمة! أحبك
تعني أحبك. كيفما كانت خسائري التي سأجرها بانتظار رصاصة
وعدني الجنة بها!

* * *

كم من الوقت مضى وأنا هائم على وجهي؟ شهر منذ توفي النذير. وجددني أدخل في حالة من الكآبة والعزلة. وجددني أكتشف فجأة أن الموت هو البداية الحقيقية لكل شيء، بعد أن اقتنعت أن الحياة نهاية لكل شيء.. وجددني مسؤولاً عن جريدة فقدت الرغبة في الاهتمام بما تنشره.. لم أكن أرغب في تقلد أي منصب إداري، حتى وأنا أجدني أتحوّل من رئيس تحرير إلى مدير تحرير.. حتى وأنا أدخل إلى مكتب النذير متردداً. لم يكن ثمة مكان أجلس فيه سوى ذلك المكتب الذي اعتقد الجميع أنني أستحق الدخول إليه.. وكنت أدخل إليه مرتبكاً حدّ الخوف.. أجلس على ذلك الكرسي لأكتب افتتاحية كنت أريد أن أستفز بها القتل ليقتلوني.. لينهوا هذا الحفل المقتنع الذي وجدنا فيه أنفسنا جميعاً، قاتلنا ومقتولنا.. كنت أشعر أن الافتتاحية التي أنهت حياة النذير قادرة أن تضع نقطة أخيرة لحياتي أيضاً، ولم يكن يعنيني العيش في مكان وفي واقع كهذا.. لم يكن يعنيني شيء منذ تحولت الأشياء إلى عبثية مريعة. منذ فقدت الذين أحبهم. منذ صارت أسماء الزملاء تصلني بعبارة " تم اغتياله صباحاً " .. حتى وأنا أفتح الجريدة في ذلك اليوم الماطر، الموهل في الكآبة اليومية.. في الغناء التراجيدي على نخب القتلى والمدينة.. عدت فيها من مقر الحكومة حيث انعقدت ندوة صحفية.. عدت متعباً.. وجددني أفتح باب الجريدة على زملائي وهم ينظرون إلي بصمت. ثم بالسكربتيرة تأتي وتقول بصوت بدا لي مسرحياً:

- هل سمعت بالخبر؟ لقد قتلوا المصور كريموا!

ودخلت إلى المكتب بصمت. لم أعلق. بقيت أنظر إليها وهي تتكلم عن الخبر الذي وصل إلى كل الجرائد منذ ساعة. وبيان وكالة الأنباء التي تنعي فيه واحداً من أفرادها " الرائعين"! شعرت بالذهول. لم يكن كريمو سوى واحداً من هؤلاء الذين يموتون يومياً. هل يمكن البكاء على واحد في حضور بقية الموتى؟ أو في غيابهم؟ كان كريمو يعي جيداً أنه لن يترك شيئاً في النهاية سوى صورته الكثيرة التي وزعتها وكالة الأنباء على كل الجرائد طوال سنوات. وذاكرة مليئة بالضغينة. تخيلت وجهه.. هو الذي كان يتكلم عن الصورة كلقطة في زمن لقيط! تخيلت وجهه لحظة القتل. تخيلت وجهه حين سقط على الأرض بعد أن أصابته الرصاصة الموجهة باسمه/إليه.. تخيلت ابتسامته الساخرة وقتها. فكرت بيني وبين نفسه أنه قد يكون بصق على قاتله قبل أن يغيب عن الوعي إلى الأبد.. فكرت أن هذا النوع من الموت يحتاج إلى صورة استثنائية ربما حلم كريمو نفسه بالتقاطها. الصورة التي كان يبحث عنها في النهاية. كان يريد أن تكون تاريخاً حقيقياً وصادقاً لوضع اسمه: الموت في حالة الموت! دون أن أنبس ببنت شفة أمام السكرتيرة التي بقيت تنتظر تعليقي، وجددني أمسك بالقلم وأكتب إلى كريمو.. رسالة لم أكتبها له حياً! ألم نتعلم من الوطن رثاء الموتى؟ أولئك الذين لم نرثهم أحياء، أولئك الذين انتظروا أن نقول لهم شيئاً جميلاً قبل أن يداهمهم الصمت الأبدي. تمنوا أن نحبههم فعلاً دون أن نساوم على جلدتهم.. هؤلاء الذين حين يموتون يصيرون استثنائيين في نظرنا. ففكر أن البكاء عليهم شرعياً وجائزاً، وأن الكتابة عنهم عملاً يجب القيام به عن "واجب" نحوهم!!! كريمو... يا لك من ابن حرام، كيف تموت بتلك الطريقة؟ كيف تذهب واقفاً أنت أيضاً؟ وكيف

تسمح لنا أن نكتب عنك جلوسا ..

... يومها رغبت في الذهاب إليك. رغبت في النظر إلى عينيك، لأقول لك هذا صديق آخر قتل اليوم. صديق آخر مات مبتسماً، كما لو أن الموت يثير السخرية قبالة هذا الموت الجماعي.. تمنيت أن أقول لك فقط: كيف أنت؟ وابتسمت بيني وبين نفسي.. كيف يكون حال امرأة فقدت أخاها اغتيالاً؟ امرأة تعتبر حزنها واجهة تدافع بها عن كرامتها المجروحة.. شعرت أنني بحاجة إلى القول لك أن الشيء الوحيد الذي بقي عالماً في ذاتي هو وجهك الذي لسبب غريب مازلت أصدق أنه قبلي الأخيرة. تمنيت أن أرفع السماعة لأقول لك: افتقدك كثيراً.. جداً يا سيدتي.. افتقدك كما يفقد الطفل أمه بين عمريين.. كما يفقد الرجل حباً فيما تبقى من العمر الأخير.. أفتقدك.. لم أكن غائباً ولم أكن حاضراً. كنت صامتاً أتأمل الأمور برغبة في البكاء قبالة الفاعل والمفعول به. بين وجهك ووجه الشارع الذي أمشي فيه مترقباً الموت الذي لم يكن يأتي.. كان يأتي للذين أعرفهم. لكل الذين أعرفهم. للذين عن وعي أو عن غير وعي أحبهم. كان يأتيهم ذلك الموت ليصدقوا أنهم يموتون واقفين، وأن الأحياء يظلون في غيابهم جالسين وراكعين للخوف وللقتلة. كل الذين عرفتهم رحلوا بطريقتهم أو رغماً عنهم. رحلوا حاملين قناعتهم بأنهم ماتوا قبلاً! افتقدتك، لأجل كل الذين ماتوا.. فهل كثير علي أن آتيك فارغاً مني وخالياً من الكلمات؟ هل كثير علي أن أجلس بجوارك وأتكلم كمن يواصل حواراً بدأه قبل ألف عام؟ هل كثير علي أن أجيء إليك لأبقى صامتاً في حضورك.. لأبدو أقل ذنباً مما أظن.. هل كثير علي أن أجيء إليك لأسأل: كيف هي الحياة معك؟ كمن يسأل: واش راك مع الميزيرية؟

ككل مرة يموت شخص أعرفه، أجدني أرغب في المشي طويلاً، بلا هدف وبلا انتهاء.. أمشي كمن لا وقت له لشيء سوى للمشي.. أمشي متعباً ومتجاوزاً رغبة الصراخ بالمشي.. أمشي وأمشي، لأنسى أنني أمشي وأن الشوارع تزداد ضيقاً أمامي والناس يزدادون فجيرة قبالي.. فكرت في أنني أريد أن أموت لسبب حميم وشخصي جداً. وتساءلت لماذا أخطأني الرصاص الذي أصابهم جميعاً؟ لماذا أخطأني الموت الذي أخذهم جميعاً؟ ولماذا علي أن أعود أنا إلى بيتي فارغ اليدين، سوى من تهمة قديمة بقيت ملاصقة لذاكرتي.. كنت أريد أن أثبت لنفسي أنّ لا كامورا لا يعيش سوى في وهم الحكايات القديمة والجاهزة. وأن من يمشي ها هنا، من يتسكع على رصيف العمر، وفي الكلام هو أنا. أنا الذي لم يجد ما يرر به وجوده سوى بهذه الطريقة. بهذا الشكل الذي يبدو لي اليوم غريباً وقد يبدو لغيري مثيراً وحتمياً. لا كامورا.. ذلك الغول الخرافي الذي ظل يسكنني. لا كامورا، أسطورة الكلام الجاهز للإدانة، ذلك الذي جرّني من أشيائي الحميمة، وعزّاني قبالي وقبالة الناس منذ صار الحظ يعاكسني في حالة من النحس الذي عبره كنت أعود كل مرة فارغ اليدين. من يستطيع أن يعزّيني على خساراتي الكثيرة؟ كنت أعزي الآخرين حين يخسرون عزيزاً، حين يفقدون حلماً، مهما كان صغيراً، وكنت أنتظر أن يعزّيني الناس على ما أخسره كل يوم.. كنت بحاجة إلى من يرّت على كتفي ومن يمسح على رأسي.. لمن يضع يده على ذراعي.. لمن يقول لي: "اتهلا في روحك..". أجل.. وحدك فهمت حاجتي لكل ذلك يا سيدتي... تمنيت أن أمشي معك طويلاً وأحكي لك ما أريد قوله لامرأة مثلك. لكن.. لشد ما تبدو الأمنيات مستحيلة على بساطتها! مع ذلك،

وجدتني أمشي باتجاه بيتها.. كنت راغباً في الذهاب دونما حاجة إلى التحجج بشيء.. دون الحاجة إلى الخوف من شيء.. ذهبت عارياً من الكلام.. حزيناً وصامتاً. كنت لتوي عائداً من جنازة أحد زملاء الذين قضوا في حادث إرهابي شنيع.. مشيت باتجاه بيتها كمن يعود إلى بيته بعد عمر من الغياب. لقني الارتباك. وأنا صاعد نحوك بدا لي السلم هلامياً لا ونهاية له. بدت لي خطواتي أكثر ارتباكاً كخطوات طفل يمشي نحو مدرّس توعده بالعقاب! صعدت بقلب يدق بقوة. ووقفت أمام الباب.. وقبل أن أضغط على الجرس وجدتني أرتبك أكثر.. ماذا سأقول؟ هل يكفي أن أسأل عن الأحوال لأبّرّ حضورى؟ تخيلتك وأنت تزمين شفّيتك كمن لا رغبة له في الكلام.. ماذا لو أدّرت لي وجهك وقلت لي بصوت لا يخلو من قسوة: والدتي متعبة ولا يمكنها استقبال أحد.. ماذا لو قلت ذلك؟ كنت سأقف قبالتك وأفكر في الطريقة الأنسب لأصفّعك بها انتقاماً لكرامتي.. وفتت أتأمل الباب الموصد، ثم.. شعرت بحركة غريبة قرب الباب.. ارتبكت والأصوات الآتية من الداخل تبدو مختلطة وغير واضحة.. كان شكلي كلص يتلصص أمام باب موصد.. كان إحساسي متشابكاً، مختلطاً بين الخوف والدهشة.. بين الخوف والشوق.. بين الخوف واللهفة.. كان الخوف هو الشيء الوحيد الذي ظل يلاحقني في كل حالاتي.. الخوف من الخوف نفسه. الخوف من اللا خوف أيضاً. من ألا أخاف حين يجب أن أخاف.. أليس هذا ما لقنه لي الوطن؟ الخوف والخوف والكثير من الخوف؟ من ذا الذي يجروّ على القول إنه تعلّم من الوطن شيئاً آخر غير الخوف؟ حتى حين نشعر برغبة في الحلم نخاف. حين نضحك نخاف. تقول عجائزنا عن لا وعي "اللهم اجعل ضحكنا خيراً!" هو

الخوف من الضحك والحلم والفرح. الخوف أن تأتي مصيبة مهمتها
معاقة كل من حلم وتفاءل وضحك ومرح وأحب... تنفست ملء
صدري ثم وضعت يدي على الجرس. كان الجو بارداً.. كنت وحيداً
أنتظر أن تشرق شمس من مكان ما. من القلب أو من الشارع. خيل
إلي أنني أرتعش وأن كل جسمي يرتجف منتظراً أن يفتح الباب..
خيل إلي أن انتظاري بدا طويلاً جداً قبل أن يفتح أخيراً:

- أهلاً وسهلاً! تفضل!

قبل أن أرد رأيت خطيبها جالسا في الصالة. شعرت بالخيبة
والحزن يخيمان علي.. تذكرت أنني في المكان الخطأ ككل مرة
أكتشف فيها أن العالم يعيش دوني أفضل مما يعيش بي! صدمتني
نظراتك المستغربة، وصوتك الذي بدا لي غير صادق وأنت ترحبين
بي بكلمات مقتضبة، وغير حارة.. كان خطيبك ينظر إلي مستغرباً
بدوره. ماذا يمكن لشخص مثلي أن يفعله في بيت صديق دفنه منذ
فترة؟ هل يمكنني الرد وقتها على السؤال لو طرحه علي أحد؟ كنت
سأطأ رأسي وأبلع لساني وأغوص في مزيد من الكآبة.. لم أجلس
حين دعاني صوتك للجلوس... كنت أريد أن أقول شيئاً
وأذهب.. وجددتني فجأة أبحث بعيني عن شخص آخر.. عن والدتك
التي اكتشفت أنها كانت السبب الآخر لحضوري إلى هنا.. بحثت
عنها بعيني.. ولعلك فهمت ذلك.. سمعت صوتك يقول لي بحيادية
موجعة:

- أعتقد أنك تبحث عن والدتي؟ هي نائمة الآن.. كانت متعبة
اليوم!

تلك الجملة التي تفاديتها عمراً طويلاً. شعرتها كصفعة مباغته.
شعرت أنني فعلاً لا أملك أسباب البقاء هنا.. نظرت إلى الرجل

الجالس مسترخياً.. كان يبدو في كامل راحته وهو يدخن سيجارة
بنهم مثير.. تساءلت. لو كان النذير حياً هل كنت ستفتحين بابك
لهذا الشخص كي يأتي ليسترخي في بيته؟

شعرت بشيء يوخز قلبي حين لفت انتباهي ذلك البورتريه على
يمين الطاولة الجانبية في الصالة. انقبض قلبي وأنا أنظر إلى الصورة
التي بدت لي استفزازية أكثر من اللازم. صورتك والرجل قبالتك
ببذلتة الرسمية. تلك البذلة الزرقاء التي تشير بوضوح إلى مهنته. لم
أسمعه حين طلب مني الجلوس.. كنت ما زلت واقفاً كفضولي جاء
على غير موعد.. كواحد غير مرغوب فيه.. شعرت بذهول وأنا أنتبه
إلى صوتها وهي تكرر لي أن أجلس.. بتلك النبرات التي لا تخلو
من ضجر.. وجلست... فكرت أن أعتذر وأغادر.. ولكنني جلست
وأنا أنظر إلى الصورة على طاولة ركنية في الصالة الصغيرة.. كنت
أحدق فيها بعينين مفزوعتين.. كان واضحاً أنها ملتقطة من حفل
خطوبتك. واضح من ملامحك وابتسامتك ويدك التي كانت ممسكة
بيد أخرى بلهفة لا يمكن تجاهلها! شعرت بوخز في قلبي.. ربما
لأنني شعرت وقتها أنني غبي. وأن الغباء سمة عائلية كبيرة. شعرت
أن الغباء والحب يلتقيان حين نظن أننا انتصرنا عليهما بالحلم.
اكتشفت أن الغباء جزء من الحب، وأن الحب الذي ينتصر في آخر
الحكاية هو الغباء بعينه!.. الحب..؟ وكيف يمكن تسمية الحب بغير
حب؟ وهل يمكن التقاط صورة للحب؟ هل يمكن أن أعترف قائلاً
لك: أحبك؟ ستضحكين علي، وتلتفتين إلى الرجل أمامك
لتضحكان معا على مهرج القصر الذي يخلق التعابير ليضحك
الحاشية والملك معا.. ليكون الوحيد الذي يحق له أن يبكي بعمق
ومن قلبه أيضاً. المهرج الذي يخاطب الآخرين عبر ملامحه

الساخرة، ليتحول إلى لحظة استثنائية على حساب قلبه الحقيقي. على حساب أحلامه الحقيقية وعلى حساب دموعه التي يسكبها في آخر المشهد وراء الستارة! كنت أنا المهرج الذي بكى في آخر المشهد.. بكى بحرقة حتى خيل إليه أنه كلما صار نواحه كبيراً كلما زادت ضحكات الجمهور عليه وسخريتهم منه! شعرت بتعب رهيب وأنا أنظر إليها من جديد وهي تعود حاملة صينية القهوة والصمت الموشح بالعتاب الخفي بيني وبين المكان. وإذ بصورة أخرى تلفت انتباهي. نظرت إليها بالحاح. صورة النذير مبتسماً بسخرية عجيبة. خيل إلي أنه يسخر مني من جديد! سمعت "الخطيب" يتكلم بشكل بدا لي عبثياً. تكلم عن أمور لم تكن تعنيني.. ثم فجأة سألني عن الجريدة، وعن عدد الصحفيين الذين سقطوا اغتيالاً هذا الأسبوع.. قال بصوت لا يخلو من غضب: "البلاد تمشي إلى الكارثة!" ووجدتني بدل أن أعلق بشيء أمد يدي إلى فنجان القهوة الذي مدته نحوي.. تظاهرت بارتشاف القهوة بلا مبالاة سوى بالصمت.. كنت في قرارة نفسي أفكر في أشياء أخرى.. ليس في عدد الصحفيين الذين سقطوا هذا الأسبوع وليس في عدد الذين سيسقطون غداً أو بعد ساعة.. فكرت في ذلك الشيء الذي يمكن تصديقه بينك وبينه. ماذا يمكن أن تجد إنسانة مثلك في شخص مثله؟ لم يكن يخلو من وسامة، إذ يكفي النظر إليه لمعرفة أنه وسيم حد التباهي بنفسه! سألني فجأة:

- هل تؤمن بحرية الصحافة وسط هذا الخراب؟

ووجدتني أبتسم. فكرت أن أضحك لأستفزه قليلاً.. ولعل ابتسامتي استفزته كفاية.. قلت له بصوت أردته طبعياً:

- حرية الصحافة ليست إيماناً فقط، بل ضرورة، من الصعب

الوقوف في وجهها حين يصبح الكلام مهمة الجميع ، وحين تتحول
جدران البلاد إلى جرائد يومية!

نظر إلي .. شعرت أنه بدأ يغضب في داخله .. قال من جديد:

- إهانة الوطن ليست حرية، بل وقاحة!

ووجدتني أبتسم من جديد.. قلت له بصوت طبيعي، كمن
يداعب شعر طفل غبي!

- الوقاحة أن يهين الوطن شعباً كاملاً!

كان غاضباً أشد الغضب وهو يرمقني بعينين لا تخلوان من
عصية. قال كأنه ينهي حواراً شاقاً:

- ربما علينا أن نعترف في قمة هذه الفوضى أن ثمة "ضحايا"
لا يمكن الحزن عليهم بعد الاغتيال، لأنهم يعطوننا دوماً إحساساً
أن الموت جزاء عادل في حقهم!

قالها وابتسم محاولاً استفزازي، ولعلي نظرت إليك غاضباً
ومذهولاً. كنت شاحبة وأنت تنظرين نحوي بشيء خيل إلي أنه يشبه
التوسل الصامت بألا أجادل رجلاً يصر على أنه على حق! قلت
بصوت أردته بارداً:

- قبالة جريمة لا يمكننا الوقوف بحيادية. لا فرق بين اغتيال
شخص واغتيال وطن..!

قلتها ووقفت.. شعرت برغبة في الخروج من هنا. شعرت للمرة
الأخيرة أنني غريب أخطأ المكان.. انتابني حالة من الكآبة الشديدة
حين فكرت أنني فقدت أسباب المكان. لم يعد لي سبب أجيء
لأجله إلى هنا بعد اليوم إذن. لم تعد لي جنية أو من بها وأنزل إلى
البحر لأجلها.. جنية صارت لشخص آخر يملك الحق عليها
بموجب سلطته وما يعتبره حقاً شرعياً فيها! كان "الخطيب" ينظر

إليّ بغير رور لا يخلو من تعال. كأنه يقارنني بنفسه.. كأنه يقول لي إنني لست أكثر من بائع كلام في بلد يموت فيه الرجال كل يوم. وأنه أحق بالوطن مني لأنه يدافع عنه بموجب مكانته وليس بموجب مقالاته! من أنا ومن هو ومن أنت؟ لا شيء. صفر على اليسار نحن في هذا الوطن الجاهز لقتلنا واحداً واحداً. فكيف يمكن مقارنة نفسي بشخص مثله. لم أكن أعرفه من قبل. ربما في زمن آخر كنت سأجلس معه وأحكي كما نحكي مع شخص نتعرف عليه فجأة. ربما كنت سأحكي معه بضغينة أقل وبشعور أقل بأنه لص رسمي سرقك مني بموجب بذلته وأنني أحق بك منه ومن الآخرين.. في زمن آخر كنت سأصافحه وأسأله كما يسأل أي جزائري شخصاً يراه لأول مرة "واش راك؟" وسأدعوه لقهوة وكلمات لن أجد صعوبة في تناولهما معه.. لكن... كان واضحاً أنني فقدت القدرة على الحب دونما خسائر مسبقة. حتى في التعامل مع الآخرين كنت معطوب المشاعر جاهزاً للضغينة، سهل الغضب، والاستياء.. كأني جزائري يشعر أنه جاهز للمساومة على حياته منذ الولادة....

- آسفة على كل شيء..

قالتها لي وهي توصلني إلى الباب.. ونظرت إليها. كنت أريد أن أرى هل هي آسفة حقاً؟ تمنيت لو كانت لي الشجاعة لأمرر يدي على شعرها.. لأقول لها: لا تتأسفي على خسائري، بل تتأسفي على خسائرك أنت! تمنيت لو كانت لي الشجاعة لأقول لها أيضاً: أنا من يشعر بالأسف فعلاً.. آسف أنك خيبت ظني!

كانت أمامي، وكنت أحاول تجنب الكلام بالصمت.. سألت من جديد عن والدتها فقالت إن ضغطها غير مستقر والسكر مرتفع أيضاً.. نظرت إليها وأنا أقول بصوت أردته صادقاً:

- الله يصبرها!

- .. ويصبرك أنت أيضاً!

يا للرصاصة التي عبرت أمامي وارتطمت بالجدار! رصاصة العزاء الذي يأتي في غير موضعه. أو ربما يأتي ليدگرنا أننا أكثر يتماً مما كنا نظن، وأقسى وحدة مما كنا نعتقد.. يصبرني؟ يصبرني على ماذا تحديداً؟ على خساراتي الأكيدة والمتكررة يومياً؟ على ما أفقده من الرؤى ومن الأحلام؟ على أصدقائي؟ على أشخاص التفتيتهم لأنعيمهم في اليوم التالي؟ على وطن قضيت العمر أبحث عنه في أوطان الآخرين، وفي أفراحهم التي كانت تستثنيني؟ يصبرني على ماذا تحديداً؟ عليك أنت يا جنية اختارت شارعها العسكري وتركت لي شارعني المدني المليء بالهموم اليومية والأحزان والتراكمات. شارعني المكتظ بالشكالي وبالأحزان، وبالذين يقضون عطلهم في خوف، ويبحثون عن بعضهم باستمرار وسط التضحيات اليومية التي يسميها الآخرون "واجباً وطنياً"؟ شارعني لا يسكنه إلا البسطاء الذين يؤمنون أن الشعب جزء منهم وأن الذين يتعالون على الشعب لا يمكنهم أن يستوعبوا مآسيه الكثيرة ولا مشاعره البسيطة. لا أحد يمكنه أن يموت في مكان أحد، لكن الشعب يموت دائماً في مكان أولئك الذين ينامون ليلاً على آذانهم الكثيرة! .. أولئك الذين يقضون عطل الصيف في باريس ويقضون عطل الربيع في إسبانيا أو في سويسرا. أولئك الذين يرسلون أطفالهم إلى مدارس خاصة كي لا يحتكوا بأطفال الشعب، كي لا يصابوا بعدوى الحزن والفقر والكتابة الشعبية! يصبرني على ماذا تحديداً؟ على أي كارثة وأي مأساة تحديداً؟ كنت سأنسحب حين شعرت بتلك اليد توضع على ذراعي، وبصوتها يقول لي بهمس أشبه بالعزاء:

- انتبه لنفسك أرجوك. انهلا في روحك!

أيتها الجنية.. كيف يمكنك أن تتلاعب بي إلى هذا الحد؟ كيف يمكنك أن تتلاعب بي بمشاعري الآن وأنت قبالي، خلفك الرجل الآخر ما يزال جالساً مسترخياً مع سيجارته.. هل تستوعبين ما فعلته بي؟ هل تلاحظين شكل انكساري قبالتك الآن، وأنا على بعد خطوة من الهاوية؟ كيف يمكنك أن تمدي يدك إلى ذراعي بعد كل هذا. بعد أن عرفت أنك لا تصلحين إلا للتأمل على نخب ضابط يتباهى أمامك بمركزه وبضغيفته لكل اللصوص والمارقين في العالم.. ألسنت في نظره واحداً من المارقين؟! فهل تستوعبين حدة خيبتني اليوم، وأنا أجيء إليك لأخرج فارغ اليدين ومهزوما؟ لكم شعرت بالهزيمة سيدتي.. حتى وأنا أبتعد بلا تعليق.. كانت عبارتها "انهلا في روحك" ترن في أذني وكنت لسبب غامض أعني أنها لم تعد تقول شيئاً! تلك العبارة التي تجعلني أنفلت أمنياً مني ومن الآخرين! كيف يمكنك أن تطلبي من شخص جرحه حرصك عليه أن يعتني بنفسه؟ أيتها الشريرة.. يا لقلبك الذي يبدو سهلاً وجارحاً. يا لوجهك الذي يخيل إلي أحياناً أنه يتسلى بحزني وانكساري، ويا ليدك التي تضعينها على ذراعي كمن يفعل ذلك عن حاجة إلى ذراع تتأبطه! لكم كنت شريرة حتى وأنت تنظرين إلي ثم تغلقين الباب خلفي.. خرجت من عندك أكثر إحساساً باليتم. في تلك الليلة أحسست أنني فقدت أمي إلى الأبد!

كنت منهاراً طوال أيام متتالية.. لأسابيع غير منتهية. كنت أجيء إلى مكتبي بلا رغبة في الحضور.. أجلس قبالة قائمة الاغتيالات التي تصل يومياً عبر فاكس الجريدة.. كأن الصحافة ستدخل إلى حالة من الانقراض.. اكتشفت أن الذين أعرفهم قتلوا، والباقي هرب إلى الخارج كي لا يموت بنفس الطريقة الجاهزة. بعضهم استطاع فعلاً أن يجد عملاً في صحف أجنبية كانت تبيع الأزمة الجزائرية إلى قرائها باليورو! كل الذين سقطوا اغتيالاً هم الذين بقوا عن رغبة في البقاء أو عن حاجة إلى البقاء، أو عن لا مناص من البقاء! كل الذين سقطوا كانوا يكتبون عن وطن يعتقدونه ممكناً، قابلاً للحياة قدر المستطاع.. كل الذين قضوا كانوا موتى جاهزين للموت، قتلى جاهزين للقتل.. ضحايا جاهزين للمجزرة.. كنت أحياناً أحضر جنازة بعضهم، وأصغي إلى الكلام الذي يقال على شرف موتهم. وأنظر إلى وجه البقية الذين ينتظرون حتفهم. أتأمل شكل الفجيعة في بيوتهم التي لن تعود آمنة ولا سارة ولا حاملة.. تلك البيوت الجزائرية التي تصنع منها الضحية شيئاً استثنائياً وسؤالاً يظل هو نفسه: كيف يمكن حب وطن يقتل بهذه القدرة العجيبة على القتل؟ كيف يمكن حب وطن يتربع على عرش الجريمة اليومية.. على أبجديات لاكامورا بكل طقوسها.. اكتشفت أن لاكامورا هي المصطلح الأقرب إلى الواقع أيضاً. لاكامورا هي هذه الحالة داخل الحالة. هي هذا الوطن داخل الوطن. لاكامورا هي كل اللصوص الذين يسرقونك بابتسامة قائلين لك: عفواً، أنت مغفل بالوراثة والقانون لا يحمي المغفلين!

كان الصيف مقبلاً، وقد مضى على آخر زيارتي إلى بيتها قرابة الشهرين.. كنت قد أقنعت نفسي أن خسارتي لن أعوضها بعمر من الانتظار.. بألف عام من الانتظار.. شعرت ألا شيء سيعينيني بعدئذ، وأن العمل هو طريق معبد نحو الموت ليس إلا.. ففي هذا البلد يمكن للمرء أن يختار موته، باختياره الوظيفة التي يمارسها. فأن تكون صحافياً مثلاً فأنت جاهز للقتل.. وأن تكون شعبياً بسيطاً في مؤسسة فأنت جاهز للإهانة والخيانة.. ولعلي تمنيتها أيضاً تلك الميتة. كنت أستغرب أن يقال لي مثلاً: الحي أبقى من الميت ! فأجدني أتلقّت حولي.. أي حي هذا الذي يبدو أبقى من ميت؟ أليس الحي ميتاً بالتقسيط؟.. كنت أمشي نحو النهاية بخطوات أردتها اختيارية. لأول مرة أشعر أنني أختار شيئاً لم أخطط له قبلاً، لم أفكر فيه بالشكل المطلق.. لطالما فكّرت في الحياة، ولطالما فكّرت في الأحلام والحب.. والدهشة والكلام... حتى الكتابة كنت أفكر فيها كمن يحلم بحبيبة استثنائية.. ولكني أبدأ لم أفكر في الموت.. وها أنا أفكر في الموت لأول مرة منذ مدة أصبحت أمشي في الشوارع التي أتوقعها الأخطر، وأجوب الأزقة التي أتوقعها الأقتل.. كل حواسي تعطلت فجأة. تحولت من صحفي حذر إلى شخص خال تماماً من الحذر.. تحولت إلى شخص قابل للطعن.. قابل لرصاصة سهلة تصيبه في الرأس أو في الظهر أو الصدر.. كنت أمشي في الشوارع بلا رغبة في الاختباء أو الاحتباء بأحد.. أمشي طويلاً وأدخل شوارع لم يكن لي حق الدخول إليها حين كان الخوف موطناً سكناه جميعاً.. وجددني أدخل إلى الأحياء الشعبية

التي يقال عنها "محرورة" بموجب انتماءاتها الـ "عقائدية" .. دخلتها
لأكتشف الناس يمارسون الحياة بطرق مختلفة وبقناعات مختلفة ..
الرجال بقمصانهم الطويلة ولحاهم المسترسلة والنساء بجلبابهن
الأسود، فيخيل إليك أنك دخلت إلى دولة أخرى قابضة على
خطوتين من الخط الفاصل بين الدهشة والدهشة ... لم أكن خائفاً
ولا سعيداً ولا منبهراً .. كنت مكتئباً وفارغاً مني ومن كل شيء ..
كنت أجزّ أذيال الخيبة من موت لم أجده ينتظرني كما توقّعت،
ولعل هذا الذي مس غروري. اعتقدت أنني سألتقى حتفي بمجرد
خروجي من مخبئي، بل وراحت بيني وبين نفسي أنني سأتعرض
للقتل في أول يوم أمشي فيه على قدمي في شوارع المدينة .. فكّرت
أن كل خطوة أمشيها هي باتجاه نهايتي .. ولكن .. حين لم أمت،
حين كنت أرجع إلى الجريدة كنت شعرت بالخيبة والثورة ! كنت
أرى في عيني الزملاء دهشة لا أحبها .. دهشة بقائي حياً في الوقت
الذي كان يموت فيه الآخرون !

هل كنت حياً؟ كيف يمكن الحكم على الآخرين من نقطة بسيطة
كهذه؟ كيف يمكن الجزم أن الأحياء أحياء بموجب أنهم لم يموتوا!
كنت أعني جيداً أنني لست حياً .. وأن الموت طالني كثيراً .. كنت
ميتاً متحركاً أجوب الشوارع متحدياً الرصاصة التي تأخرت .. قبل
سنوات كان يخيل إلي أن القلم أقوى من الرصاص .. لكن ..
اكتشفت أن الرصاص أقوى من كل شيء وأن الحرب التي تنفجر لا
يمكن أن يهزمها قلم .. وأن القلم لن يحمي أمّاً من الفجيرة في
غياب أبنائها. وأن القلم لن يحمي فقيراً يجره الإرهابيون من بيته
لينحروه كالشاة دون أن يعرفوا اسمه حتى ... يجرونه لحاجة في
نفس الجريمة التي تعني بقاءهم على صدر الصحف اليومية لأجل

الإطاحة بمعنويات الناس. لهذا يقتلون، لأجل أن يقتلوا أولئك الذين يعتقدون أنهم ما زالوا أحياء.. يقتلون لأن القتل زادهم اليومي، في قتال غامض يتغذى من جثث الفقراء والبسطاء والمقهورين والمغبونين.. كنت أكتشف يوماً بعد يوم طريقتي في العيش وسط موت يقتل الحياة ويجعل الأمل نكتة سخيفة وغير ضرورية.. لهذا صرت غير آبه بالحياة.. كنت أتلفت حولي عن لا شعور أحياناً بحثاً عن الرصاصة. لعلني كنت أريد أن أنقذ ما تبقى مني برصاصة تصنع مني شهيداً وتمنحني تأبيناً كالذي منح للزملاء الذين سقطوا قبلاً. لكنني رفضت فكرة التأبين.. كنت رافضاً أن يقرأ أحدهم قصيدة يمتدح فيها خصالي التي لم يعرفها ويمجد حياتي التي عشتها بالتقسيط! اكتشفت أن الشهادة ليست بحثاً عن الموت، بل عن الشهادة نفسها وأنا كنت أبحث عن الموت متناسياً ماهيته. الموت بهذه الطريقة وإن كان قتلاً فهو انتحار أيضاً والحال أن بلوغه بهذه الطريقة سيمس كبريائي. ألم تكوني أنت سبباً كافياً لأبقى فعلاً. لأحيا فعلاً؟ كنت محاصراً بك، وفارغاً منك. كنت أتحنس ذراعي عن لا وعي، وأتحنس قلبي عن لا وعي.. كنت أمشي أحياناً في شارعك.. أتوقف طويلاً عند باب العمارة التي تسكنين فيها. أظاهر بالتوقف لمجرد التوقف. أرتشف القهوة في المقهى القريب من بيتكم فقط لأراك تعبرين المكان. لأرى خيالك وأتلمس ذراعي حين تعبرين. من دون أن ألفت الانتباه، سوى بصمتي وحزني.. أراك متأبطة ذراع خطيبك وتمشين معه بشكل لا يخلو من غرور ومن استفزاز. كأنك تعرفين أنني ها هنا. كأنك تسعدين باستفزاز مشاعري، وبضربي في القلب بتلك الحدة الموحجة. يا امرأة من زجاج. يا وطناً عشته بتفاصيله الخاصة بي. يا دولة لم أعرف الدفاع

عن هويتها .. هل يمكن أن أعلن هزيمتي في حضورك؟ كنت أزداد هزيمة بك، فيك، قبالتك.... لم تكن لي رغبة الانتقام منك ومن الناس ومن المكان والظروف. كل شيء بدا لي تافهاً حد المقت. شعرت أن الأمور تمشي نحو الكارثة البليدة. وأن الكارثة ليست أكثر من هذا المكان الذي نوجد فيه! كان الصيف في آخره بنفس حرارته الخانقة وضجره اليومي وإحساس الناس بالتعب فيه وبالخوف.. وبحكايات المجازر المرتكبة في القرى الأخرى في الغرب والشرق، وبالضحايا الذين كانوا يتشابهون في بساطتهم وفقهرهم وحزنهم أيضاً. كانوا يشتركون في نفس الوطن الذي عاشوه على الهامش، معزولين عن الحياة نفسها، لهذا بدا الموت رحمة لهم. الموت الذي يحرر المرء من همومه الكبيرة والعويصة والكثيرة ومن مشاكل الكون... أليس هذا ما قاله لي رب عائلة جاء ذات يوم إلى مقر الجريدة لينشر نداء إلى الجزائريين ليساعده على تحمّل مطالب عشرة أبناء لم يقدر على إطعامهم كلهم. جاء يطلب مساعدتنا.. وجدنتني أسأله: ماذا يمكن أن يقدمه لك نداء في جريدة؟ الناس يحتاجون إلى من يساعدهم، إلى من يدفع معهم عربة الوقت البليد... فقال لي وهو ينظر نحوي بعمق: أنا ربما لن أحصل على إعانة، لكنني سأنشر صورتني مع النداء.. قد يتعرف علي إرهابي يسكن في نفس منطقتي فيفتالني.. تلك رحمة أتوق إليها لأرتاح من تعب الحياة!!

لعلّي بحثت عن إجابات لأسئلة لم يكن ثمة رد عليها. كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش.. كنت أبحث عني. عما يربطني بي وبالأخرين. واعتقدت أن ما يربطني بالآخرين هو أنت. طريقة تواجذك في الحياة برغم كل التناقضات التي تحيطك، وبرغم كل المسافة التي وعيتها بيني وبينك. قبلاً وبعداً. لم يكن في نظرك ما

يمكنه أن يوحد بيننا سوى المآسي.. والبكاء على موتى نعرف بعضهم ولا نعرف أكثرهم.. كنا نشترك في هذا الجدال الغريب عن ماهية الأشياء التي تحيطنا. ماهية الحب والقضية والثورة والحق والعدالة والحرية.. ما الوطن خارج هذه الأضداد يا سيدتي؟ أجل.. ما الوطن سوى المآسي التي توحدنا. فلم يكن ثمة وطن خارج المأساة استطاع أن يجمع بين الناس، بينما الأفراح، فهي توحد الذين يمسحون على فمهم بمنديل حريري بعد أكلة دسمة على شرف الشرفاء الأغنياء!

في ذلك الربيع المقبل بدهشة، واستحياء، واصلتني دعوة لحضور منتدى إعلامي في سورية. وجدتني أتأمل الدعوة بلا رغبة في قراءتها.. لكنها بدت لي ضرورية في توقيتها. كنت بأمس الحاجة إلى حجة كهذه لأغادر البلاد ولو لأسبوع. ولم أتردد في إرسال الموافقة إليهم عبر الفاكس. كنت مستعداً للذهاب ليس لأجل المشاركة، بل لأجل الابتعاد ولو قليلاً.. وشعرت أن الدعوة تكفي لتنسيني تلك الرصاصة التي قضيت الوقت بحثاً عنها، وتنسيني تلك الجولات اليومية في الشوارع والأزقة الضيقة وقرب دارك. انشغلت فعلاً بكل الترتيبات. لم أستعن بأحد ليرتب لي أشيائي. أردت أن أفعل كل شيء بنفسني. كمن يقرر الرحيل أخيراً من دائرة الهوان التي عاش فيها طويلاً.. كنت على أتم الاستعداد للمغادرة بعد ثلاثة أيام نحو سورية. بدا لي الوقت رتيباً وطويلاً. بدت لي الأشياء مملة، ووجدتني أعود لأجل أن "أقتل الوقت" أمشي في الشوارع.. ووجدتني أذهب إلى ذلك المقهى الذي كنت أرتاده لأصغي إلى "عمي العربي" حين يحكي عن تاريخه الشخصي ويقارنه بتواريخ الوطن. عمي العربي الذي لم أره منذ ثلاثة أعوام.. ووجدتني أتمنى

العثور عليه في ذلك المقهى الذي أعرف أنه يرتاده دائماً. حين وصلت إلى المكان هالني التغيير الذي طرأ عليه. تغير المقهى وتحول إلى قاعة للشاي. لم يتغير صاحب المقهى الذي حين رأيته جاء نحوي فاتحاً ذراعيه.. قال بصوت لا يخلو من حرارة "عاش من شافك يا صاحبي.. وين غطست؟ سمعنا أنك أصبحت صحفياً كبيراً، لكن هذا ليس مبرراً لثنانا يا صاحبي!" ولم أعلق بأكثر من ابتسامة ساخرة. أضاف كمن يرد على نفسه: "والله أعرف أن الظروف ليست بخير وأن القتل يطال الصحفيين وغير الصحفيين، وهذا يخلينا نجد لك مليون عذر على انقطاعك عنا!" جلس أمامي يكلمني فجأة عن المكان. وكنت أصغي إليه.. تكلم عن الوضع والناس والمقهى الذي لم يعد آمناً. صار يستقطب الإرهابيين الذين يصطادون ضحاياهم فيه. فقرر أن يغيّره من مقهى إلى قاعة للشاي تعتمد على حارس يفش الزبائن والحقائب لإثبات أمن مفقود! سأله عن "أصحاب زمان" فتهدد بعمق قبل أن يذكر لي أن بعضهم غادر البلاد بسبب التهديد أو مختلقاً التهديد ليهرب من البلاد.. والبعض الآخر قتل فعلاً! ثم وجدني أسأله عن عمي العربي. فنظر الرجل نحوي مستغرباً.. مسح على بقايا شعر فوق رأسه وقال: عمي العربي؟ ألم تسمع؟ لقد اختطفوه قبل سنة. لا أحد يعرف أين اختفى. لا أحد. البعض يقول إنه قتل والله أعلم!

نظرت إليه مستغرباً ومذهولاً.. خطف؟ عمي العربي؟ من ذا الذي يرغب في الانتقام من شخص شبه ميت؟ كان عمي العربي شاهداً وحيداً على عصر انتهى إلى الكارثة. شعرت بالصدمة وأنا أفكر في آخر مرة رأيته فيها، يوم اغتيل الرشيد.. يوم شدني من ذراعي لينصحني بعدم الانصياع للكلام الجاهز.. ها هو قد تعرض

للخطف. هو الذي لم يكن ليؤدي أحد سوى بذاكرة مليئة بالتفاصيل وبالفجائع.. أتذكر ذلك اليوم، حين لم أجد ما أقوله له. حين انتهى من سرد حكايته الخاصة، وحين أخبرته أن الرشيد مات، نظر إلي بحزن غريب وذكّرني أن الرشيد مات دفاعاً عن واجب يؤمن به. ثم حين هممت بالمغادرة شدّني من يدي. وأجبرني على الجلوس قبالة ثانية. كان حزيناً يومها. سألني: لا تسمح لنفسك بأن تكره وطنك الذي تعيش وتحيا فيه.. أنت جزء من هذه الأرض يا بني. ونظرت إليه. فجأة راح يحكي لي قصته ثانية وكنت لسبب بديهي غير راغب في إيقافه، وغير راغب في الإصغاء إليه. مع ذلك بقيت جالساً مؤدباً وصامتاً. وحين انتهى نظر إلي وتنهد. ثم سألني: كم مرة حكيت لك الحكاية نفسها؟ وحين لم أرد ابتسم وامتص سيجارته ثم قال بصوت كئيب ومكسور: لم تسألني أبداً من هو الشخص الذي فشلت في القضاء عليه في مهمتي الأخيرة. الشخص الذي استطاع أن يطلق النار علي ويهرب. هو الذي تسبب في بتر ساقي وشل جزء من ذراعي وأحالي علي العطب التام. لا أحد سألني عنه ولا حتى أنت؟

نظرت إليه وقد استيقظ الفضول في نفسي يومها. سأله كمن وجد موضوعاً آخر يتطرق إليه غير القتل: من هو يا عمي العربي. ابتسم ونظر إلي من جديد، ثم عاد يدخن سيجارته. بدا غائباً يومها، وحزيناً جداً. لعلّي ربطت حالته بموت الرشيد الذي عرفه مثلي وأحبه مثلي. ولكن.. حين همّ بالوقوف، رمى بالجريدة أمامي. الجريدة التي كان منشوراً على صفحتها الأولى خبر ترشح أحد "الشرفاء" للدخول إلى الانتخابات البلدية المقبلة "كسياسي مستقل واجب الدفاع عن شرف البسطاء"!

مع هذا، لم أكن لأستوعب كيف يتعرّض عمي العربي إلى الخطف؟ فكرت أن الشعب كله تعرّض إلى الخطف والقتل والتنكيل، فكيف لا يتعرّض عمي العربي إلى ذلك أيضاً؟ تخيلت الرجل يقتاد إلى مصيره النهائي. لعله استعذب النهاية التي صنعت منه شهيداً استثنائياً. حين دخلت إلى قاعة الشاي لفت انتباهي جملة كانت مكتوبة على لافتة كهربائية بشكل صارت فيه الكتابة تضيء وتختفي كما لو أنها تتلاعب بالحروف بشكل لا يخلو من سخرية.. ربما لأنني اكتشفت أن قاعة الشاي تحمل اسمه: قاعة عمي العربي للشاي والسلام!! يا لها من سخرية على شرف ذاكرة ما زالت تحكي وتدين وتوجّه أصابع الاتهام للقتلة. قتلة الأمس وقتلة اليوم. لمجرمي الأمس ومجرمي اليوم.. لكل المجرمين الذين تحولوا إلى "شرفاء" بموجب مصلحة رسمية.. من سأل عن عمي العربي. من بحث عنه. لا أحد له الوقت ليسأل عن أحد في وقت صار الجميع يبحث عن نفسه وسط الشتات الجماعي. وسط الموت الجماعي والاختفاء الجماعي.. لم يكن لعمي العربي أحد يسأل عن غيابه، هو الذي اعتقد أنه سيكون محورياً في علاقة الناس به، برغم حياته التي عاشها وحيداً بلا أسرة حقيقية ولا ابن يحمل اسمه ويبحث عنه لو تأخر عن العودة إلى البيت. لم يكن له أحد يبحث عن ذاكرته أيضاً، تلك الذاكرة التي تركها ومضى.

شعرت أنني كسرت فرحة السفر بتلك الزيارة التي قادتني إلى هناك، وقبل أن أفيق من تلك الصدمة، وقبل 12 ساعة من ركوبي الطائرة نحو سورية جاءني الخبر الذي لم أكن أعرف كيف عليّ أن أتلّقه.. خبر وقع أمام عيني كالصاعقة. خبر السيارة المفخخة التي انفجرت على مقربة من المديرية العامة للأمن. هالني عشرات القتلى.

شعرت بالفضاعة وقتها.. خيل إلي أن الأمر صار فوق الاحتمال.. كانت الحرب في ذروتها بين اليأس والرعب والقتل العمدي.. أجل.. شعرت بالرعب وصور القتلى تصلنا إلى مقر الجريدة لنشرها تباعا. كنت بلا صوت حين وقع نظري على صورة الضابط الرابع الذي كان ضمن الضحايا. صورة وجه أعرفه جيدا. كان يجلس في بيتك ويضع رجلاً على رجل وينظر إلي من فوق أنفه مغروراً. لم أنكر أنني كرهت ذلك الوجه حيا. كرهتك لأنك السبب في كرهه له. لأنك أجبرتني على كرهه. هو الذي ربما في زمن آخر، كنت سأجلس معه حول كلام عفوي وبسيط. كلام قد يقوله صديقان لبعضهما.. لكني كرهته منذ رأيته تتأبطين ذراعه.. كان وجه الضابط أمامي يتأملني بنظرة بدت لي مقصودة. خيل إلي أنني ألمح شبه ابتسامة ساخرة على شفثيه. ابتسامة لم يكن لأحد القدرة على رؤيتها كما رأيته أنا. ابتسامة فهمت قسوتها مباشرة. شعرت بالذهول يأكلني. بقيت جالسا أنظر إلى الصور. كنت مطالباً أن أكتب افتتاحية أنطرق فيها لما جرى.. كنت مطالباً بأن اكتب افتتاحيتي الأخيرة قبل مغادرة البلاد نحو سورية لكنني عجزت. شعرت بالقلم يرتعش في يدي.. شعرت يدي ترتعش قبالة القلم. شعرت بي أرتعش قبالة تلك الصورة تحديداً.. هل فكّرت فيك وقتها؟ كنت صامتاً وعاجزاً عن التحرك من مكاني. هل كان علي وقتها أن أركض نحوك لأقول لك: عدالة السماء هي التي قررت أن أكون من يبقى في نهاية هذه المسرحية السخيفة لأنزل الستارة وأطفئ النور! أليست عدالة السماء تلك التي أبقتني حياً في الوقت الذي مات فيه الجميع. هل كان علي أن أتباهى بالبقاء؟ أنا الذي عاش أسابيعه الأخيرة بحثاً عن تلك الرصاصة التي أصابت الجميع وأخطأتني؟ أنا الذي أراد أن يموت

لينتهي من عقدة البقاء وسط هذا الهباء المقنع؟ هل كان عليّ أن أتباهى بما حققته من خسائر كثيرة أكبر من عمري الزمني. أكبر مني ومن جيلي كله.. كل الذين أحببتهم رحلوا بينما بقيت أنا أجوب غرف الموتى لأعزي أهاليهم واحداً واحداً.. لكنني وجدته اليوم غير قادر على فعل الشيء نفسه. لم يعد بإمكانني أن أكتب نعيّاً وقد صارت الأمور بهذه الفظاعة المعلنّة، وقد ضاق القلب بكل هذا القتل العمدي. كنت فارغاً مني، وبدل أن أكتب غادرت المكتب مسرعاً! هل كان عليّ أن أفرح على شيء ربما بدا حدوثه لصالحني. أن يخطف العنف خطيبك، أن يخطفه بهذه الطريقة، بهذا الشكل، ألم يكن الأمر لصالحني أنا الذي عشت حياتي أستفيد من موت الآخرين لأبقى. لأقنع نفسي أن بقائي كان حتمياً؟ هل كان عليّ أن أسعد بتلك القسمة العادلة؟ لكنني لم أكن سعيداً.. كنت أبكي غموض المرحلة. أبكي النذير الذي رحل قبلاً، وأبكي كريمة وكل جيلي الذي عاش يتيماً قبل موته.. أبكي جيلاً آخر يولد في نفس الملجأ.. يولد يتيماً بلا أب ولا أم ولا وطن ولا حلم.. كنت أبكيك أنت التي صدّقت الحياة برغم قتامتها. صدّقت أن الوطن كفيل بكل شيء، ها هو يأخذ منك ما تبقى من فرح.. ألم يكن لي الحق في البكاء وقتها؟ قررت عدم السفر منذ قرأت خبر الحادث. منذ شعرت أن بقائي أهم من ذهابي إلى أي مكان. كنت أستغل الفرصة التي قدّمتها لي القدر على طبق مليء بجثث الآخرين.. لهذا ذهبت إلى بيتك في اليوم الثاني من الحادث. كأنه عليّ أن آتيك بعد كل جريمة ترتكب ضدك.. كأنه عليّ أن أكون آخر من يأتي ليقول لك: لك الصبر على ما كان وما سيكون.. لك الصبر لتتحملني ما يتبقى من طريق تمشيته في وطن يتآكل. أنت التي ما زال جرح أخيها

ينز... هل يمكن لي أن أقول لك بعد ذلك: جئت لأهزبك؟ ألم أت لأعزي نفسي أيضاً؟ حتى وأنت تجلسين قبالي حزينة وصامتة. لم أجد ما أقوله لك وقتها. كان حزنك يشبه حزن المدينة التي تحيط بنا عارية من الفرح ومن البهجة.. كنت أنا القابع أمامك على كرسي منزو في ركن الغرفة. لم أجد ما أقوله سوى الصمت ولم تقولي شيئاً سوى البقاء قبالي شاحبة، مرتدية السواد على أخ وخطيب أكلهما الوطن!! ماذا كان علي فعله سوى الصمت قبالتك من دون أن يكون لي رغبة في الكلام. لم يكن بمقدوري أن أقول مثلاً: كان المرحوم رجلاً رائعاً! لم يكن بمقدوري أن أبدي مشاعري نحوه أنا الذي كرهته لمجرد أنه كان في حياتك.. بحثت طويلاً عن كلمة تليق بتلك الجلسة الصامتة. بحثت عن شيء يمكن قوله من دون أن يتكسر حاجز السكوت بيننا.. كنت أنظر إلى اللا مكان.. وكنت تنظرين إلى نقطة غامضة في زاوية المكان.. ثم حين شعرت أن وجودي لا طائل منه وجدتنني أقف فجأة. سألت عن الوالدة وحين نظرت إلى الغرفة المجاورة وجدتنني أَدفع الباب وأدخل لأجد تلك المرأة وقد أنهكها الحزن. كانت في سريرها شاحبة وبدا لي أنها هرمت كثيراً. بدت لي وكأنه مرت خمسون سنة على آخر مرة رأيتها فيها.. حين رفعت عينيها إلي، لاحت ابتسامة دافئة على ملامحها. كأنها ترى ابنها الذي رحل من قبل بلا سبب.. جلست على حافة سريرها ودون مقدمات وجدتنني أحضنها. لم أقل شيئاً. كانت تلك الفرصة المناسبة لي لأجهش بالبكاء في حضن يتسع لدموع جيلي كله. لهموم جيلي كله. كانت تبكي أيضاً وهي تمسح على شعري، وتطلب مني أن أكون أقوى من هذا. كأنها لتذكرني أن القوة تكمن في أن الوقت لم يعد يتسع لغير الانقضااض على الفرص التي يمنحها القدر إلينا

حين نتوقعها أقل. سألتها عن حالها. وابتسمت بحزن. كأنها تسخر من سؤالي. كيف يمكنني السؤال عن حال امرأة فقدت ابنها فجأة وخطيب ابنتها بنفس الـ"فجأة"؟ كيف أتوقع حال أم ترى بأم عينيها هذه الفجيعة الممتدة من وإلى كيانها؟ كنت بلا صوت أمام وجهها المتعب والعميق والحزين. قالت لي فجأة: هل رأيت ما جرى لنا يا بني؟ حسبنا الله ونعم الوكيل فيهم... قالتها وانفجرت بالبكاء من جديد.. لم أرد. لم أعقب. لم أغلق.. كنت صامتاً. أبحث عن كلمة أقولها من دون أن أسيء إلى حزن هذه الأم التي أحب.. وجدتني أقول أشياء عادية.. عن الصبر والقضاء والقدر.. عن حق الموت علينا. عن المكتوب. والنصيب. عن الحياة والموت. كنت أتكلم كمن يتكلم عن شيء لا يعنيه تماماً.. شعرت فجأة برغبة غريبة في قول ما بدا لي عادياً حد الغباء.. ولأنها كانت تصغي إلي فقد شجعني صمتها على قول تلك الأشياء. كانت تمسح على شعري براحتها المتعبة. سألتني عن أموري، وقبل أن أرد شعرت بحركة خلفي فنظرت نحو مصدرها وإذا بي أراها تقف عند عتبة الباب، وتتكئ على الجدار.. لم أنظر إليها. كان يكفي أن أحسها خلفي لأقول بصوت أردته صادقا: أنا لم تعد لي أشياء معينة. ولا تفاصيل معينة. أنا كل هذا الشتات الذي تريه أمامك.. انتظرت تعليقاً منها، ولكن جاءني التعليق من أمها التي قالت وهي تضغط على يدي:

- تمسك بحقك في البقاء يا بني. واجبك اليوم أن تبقى، لأجلنا أيضاً..

ياه.. لكم تمنيت لو كنت أنت من يقول لي ذلك الكلام.. لكنك كنت تنظرين إلى أمك كما لو أنها تقول أشياء غير منطقية.. أضافت:
الأم:

- ليس من حقل أن تتشاءم يا بني. لا تترك التشاوم يقتل قلبك.
أنت شاب ولهذا يجب أن تعيش ما استطعت!

و لم أعلق هذه المرة بشيء. كنت صامتاً. وطفى الصمت على
الغرفة، واحتواها تماماً.. ثم حين لم يعد ثمة سبب أبقي لأجله
هممت بالمغادرة.. تمنيت لو يتسنى لي قول أشياء أهم من تلك التي
قلتها لوالدتك. كنت أتمنى في تلك اللحظة لو كانت لي الشجاعة
لأمد يدي نحو شعرك، وأزيع تلك الخصلة الشقية التي سقطت على
جبهتك. تمنيت لو كنت قادراً على ذلك فعلاً.. لم يكن لي ما أقوله
وقد صار الموت بهذه الشساعة حولك. ماذا يمكن لرجل مثلي أن
يقول لامرأة مثلك في هذه الظروف تحديداً؟ لا شيء.. لا شيء
يمكنه محو فظاعة الزمان يا سيدتي. ولا حتى الحب أحادي الطرف
كحبي لك.. وجددني أحاول الانسحاب بأقل خسائر ممكنة.. ثم
حين كنت سأدير ظهري شعرت بتلك اليد تمسكني من ذراعي.. تلك
اليد التي تمنيتها وحلمت بها كثيراً. نظرت إليها.. ثم رفعت عيني
إلى تلك العينين المغرورتين بالدموع وبالحزن. وقبل أن أقول شيئاً
وجددني أضمرها بقوة. وأسمح لها أن تجهش بالبكاء في حضني..
هل كان على الموت أن يكون قاسياً إلى هذا الحد كي يتسنى لي
ضمك كما الآن؟ هل كان على الموت أن يحضر بهذا الضجيج
المحاط بالضحايا وبالجنث لأضملك إلى صدري وأترك لكائك حق
البكاء معي؟ أنا الذي جئتك قبل الآن زاحفاً على ركبتي. هل كان
على الموت أن يخطف خطيبك كي أقف أمامك هذه الوقفة، وكي
تبكي في حضوري بهذا الشكل؟ ألسنت أنا من آمن بك منذ بداية
الأرض؟ لكم انتظرتكم ولكم جئتكم مشياً على ركبتي كالبوذيين.. أنا
الذي عشت حياتي مشتتاً بين الحب والرحيل واليتم والضعف. بين

الحلم والحد الذي تعلّمته يوماً بعد يوم من القرية إلى المدينة إلى وطن لم يكن يبذل جهداً ليصنع مني حاقداً جديراً! ألم يكن الحد ثقافة قومية أيضاً؟ حين يلتقي الناس يتحول الكلام إلى وسيلة لتبادل الأدوار، ولاختزال المسافة بين ضغينة وأخرى. حتى في الفرح يتحول الناس إلى سعادة بالدور، بموجب ما تصنعه الحالة فيهم من خوف ومن فرح! أنت التي رأيت فيها وجهي الحقيقي أول مرة. من كان ليظن أن أحبك بصمت وأستهيك بصمت. وأحلم بك بصمت. من كان ليظن أن تكوني أنت ثورتي الخاصة وقضيتي الخاصة ومطالبي الخاصة؟ ألم أكن واحداً من الشعب؟ وجهك الذي كان وطني الوحيد. كان مطالبي الشرعية بالخبز والحرية والعدالة والمساواة.. وجهك الذي صنع بهجتي الأولى وارتابكي الأول وحنيني الذي عبره فقط كنت آتيك مجرداً من الحجج.. لكم كنت فارغ اليدين من دونك. لكم كنت يتيماً ووحيداً وباحثاً عن الموت من دونك. كل الدروب التي قادتني إليك هي نفسها التي مشيتها بحثاً عن وطن أردت أن أستعيده في اسمك السهل. يا امرأة تبكي في حضني. يا دموعاً تخرج من قلبي. ويا قلباً يتسلل من فؤادي. كيف أمكنني التصديق أن الحياة ممكنة دونما عينيك.. كيف أمكنني التصديق أن نسيانك جزء من قضيتي الثانية. وأن البقاء الذي لم أعد أكرث له أهم من البقاء الممجد بالجثث.. لكم أحببتك سيدتي. لم يكن ذنبي أن أحبك بهذا الشكل. فقد عرفتك من قبل أن أراك. من قبل أن أعرفك. لم يكن لأحتمل فقدانك بعدئذ حتى وأنا أجز انكساري بعيداً وأمشي على الزجاج المكسور. يا امرأة لا تحب إلا لتحزن. هل كان عليّ أن آتيك جاهزاً كعاشق يكذب على الحب بالحب؟ هل كان عليّ أن

أدخل إليك من الباب المشرّع بالخيال واللا حقيقة؟ أنا الذي جرّته
المدينة من قلبه إلى الفجيرة منذ بداياته الأولى. ألم يكن لي حق
الانتقام من الحب فيك؟ يا امرأة جزائرية مغرورة حد الدهشة. إليك
في حضني سيدتي. إليك ما استطعت من الدموع ومن الجراح. لا
أحد يعرف متى تنتهي دموعك. لا أحد يعرف متى تنتهي دموع
الوطن. لكن الوقت يمضي نحو ذلك الغد الذي لم أعد قادراً على
الكفر به بعد اليوم. بعد أن غمرتني دموعك وغسلت صدري حد
القداسة. لم يعد يتسنى لي ألا آتي إلى هنا مرة أخرى. لقد كانت
ليدك اليوم شكلاً مختلفاً. تلك اليد التي أعني حاجتها لذراعي
كحاجتي إليها. لم يعد ممكناً ألا أكون استثنائياً من جديد، وألا
أكتب افتتاحيتي هذا المساء لأجل أن ينتصر الحب على سوداوية
الكون والمدينة والأشياء. لأجل أن أنتصر بالحب على القتل. على
الذين يتربصون بي أيضاً دون أن يعرفوا أنني أبقي لأجلك ولأجل
أن أعيش في وطن وجدته فيك!

وطن من زجاج

ياسمينة صالح

كاتبة من الجزائر

نظرت إلى «عمي العربي» ودفعت ثمن قهوته وهممت بالمغادرة قبل أن يشدني من ذراعي فجأة.. نظر إلي بعمق كأنه يعزيني.. أو كأنه يعزي نفسه.

ربما لأنه يدري أن الرشيد لم يكن صديقي تمامًا، ولم يكن صديقه، كان واحدًا نشترك في معرفته.. واحدًا نعرف أنه لن يأتي ثانية إلى هنا، وأنا لن نحكي عنه إلا بعبارة «كان»! تمنيت لو كانت لي قدرة على قول كلمة مفيدة واحدة لذلك الرجل الذي ظل ممسكًا بذراعي منتظرًا مني أن أقول شيئًا ليقول ألف شيء..

– لن يفيدنا الحزن يا بني.. لا شيء يعوض خسارتنا، لا شيء يعوضكم خساراتكم أيها اليتامى في وطن سرق اللصوص والقتلة قلبه!

نظرت إليه، خيل إلي أنه سيبكي فجأة. ولكنه راح يتناول سيجارة أخرى ويشعلها ويمتص دخانها بصمت قريب من النواح.
«لنتعلم الكلام بلا إهانات ولنبدل جهدًا كي يحترم أحدنا الآخر لأننا سنفترق في الأخير»!

لا أدري لماذا كانت تشدني هذه الجملة لغارسيا ماركيز. كنت أجراها في ذاكرتي كما لو أنه قالها لي. كنت في كل مرة أجدني في موقف ما ألجأ إلى التعويض عبر ما أحفظه من الجمل ومن الأشعار التي أنقلها إلى كراسة خاصة كي لا أنساها.. كي لا أخون فكرتها الأولى ولا أتشبث بكذبتها الأخيرة. أليست القصائد كالمدن. نجبها لأنها تكذب علينا. لأنها تخدعنا وتشوه أحلامنا بالشعر، وبالكلام المنمق والجاهز..

ياسمينة صالح روائية جزائرية حصلت روايتها الأولى «بحر الصمت» على جائزة مالك حداد عام 2001 وصدرت عن «منشورات الاختلاف».

بشار العيسى فنان تشكيلي سوري رسم لوحة غلاف هذا الكتاب.

ISBN 9953-29-242-6



9 789953 292427

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbbooks.com



منشورات الاختلاف

14 شارع جلول مشدل - الجزائر العاصمة - الجزائر

البريد الإلكتروني: revuekhitlef@hotmail.com

www.neelwafurat.com

نيل وفرات.كوم



جميع كتبنا متوفرة
على شبكة الإنترنت